تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطي (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

بعد المستنجد المستضيء ابنه

تولى تسع سنوات . بعدما اجمع الزعماء على المستنجد وقع اختيارهم على مبايعة احد بنيه الذي لم تخطر الخلافة بباله اصلاً وكان حليماً وضيعاً . فاستحلفوه ان لا يفتك باحد منهم وان يرد لهم كل ما انتزعه والده منهم . فاقسم لهم بذلك واحضروا اخاه واستحلفوه مثله وهددوه بالقتل وصنعوا مثل ذلك بجميع ابناء الاسرة . ولما اقسموا جميعاً بايعوه بالخلافة وسموه المستضيء .

وفي السنة ١١٨٣ لليونان (١١٧٢ م) عمّ الثلج الارض كلها حتى الهند التي لم يعرف اهلها الثلج قطعاً . وقد بلغ علوه هناك اربعة عشر شبراً فيما قيل . وجمدت الانهار والينابيع وتلفت الحيوانات والطيور جوعاً وعطشاً . ولزم الناس بيوتهم كأنهم في قبور لا يتيسر لهم الذهاب من قرية الى قرية . وخنق الثلج كثيرين من سكان الخيام والمسافرين . وتفاقم الجوع في سبسطية بسبب بُعد المسافة وطلب الزعماء من اسميل بن دنشمند صاحب قيصرية قمحاً لهم ولذويهم يكفيهم الى الصيف لئلا يهلكوا . وكان عنده اهراء كثيرة مملوءة ذخيرة لكنه رفض طلبهم فوثبوا اليه وقتلوه هو وامرأته وهي اخت السلطان قلج ارسلان وقتلوا معهما خصيانة شخص من حشمهما وعبيدهما وجواريهما واحتلوا الاهراء باسرها . وارسلوا الى دمشق وطلبوا عمه دوالنون الذي كان منهزماً من وجه السلطان فاقبل وتولى سبسطية .

وفي السنة ٥٦٧ للعرب (١١٧١ م) كتب نور الدين الى صلاح الدين ليلغي الخطبة باسم العاضد خليفة مصر ويخطب لخليفة بغداد . لكن صلاح الدين تخوّف حدوث ثورة فاجل القضية . فاضطره نور الدين ثانية ولم يستطع ان يخالفه فاستشار زعماء مصر فاختلفوا فرقتين احداهما حثت بذلك والثانية نهت عنه .

وحضر هناك رجل فارسي يقال له الامير العالم فقال لهم : انا ابتدي الخطبة واكفيكم الهم . وصعد المنبر يوم الجمعة ودعا للمستضي ابن العباس بدلاً من العاضد ابن علي . ووافقه الجمهور . وجرى مثل ذلك يوم الجمعة التالية في مساجد مصر جميعها والتمت خلافة المصريين .

وكان العاضد خليفة مصر يومئذٍ مريضاً ولم يخبره اصحابه بما تم خيفة ان تعاجله المنون فقضى دون ان يشعر بما صار . واعتقل صلاح الدين ابناء الخليفة وآله وفصل الذكور عن الاناث قطعاً لنسلهم . واعتق العبيد والجواري . فابتهج العرب اصحاب شيعة القدر والقضاء وشيعة مؤيدي الحرية والاختيار . ويقال ان خلفاء مصر لا يتحدرون كما يزعمون من علي وفاطمة بل من رجل يهودي او مجوسي . وقد نظم الشعراء قصائد جمة في الثناء الدولة الفرعونية وظهور الدولة اليوسفية . وقام منهم اربعة عشر خليفة في المغرب : ثلاثة في افريقية وهم : المهدي والقائم والمنصور . واحد عشر في مصر وهم : المعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد .

واستقل صلاح الدين بمصر (٣٤٥) لا يعارضه احد قطعاً سوى نور الدين فقد كتب اليه يقول : هنذا حاصر الكرك فاحشد الجنود واستعجل في القوم الى هناك . لكن صلاح الدين لم يلبه . فسخط نور الدين واعتزم الذهاب بذاته الى مصر ليخرجه عنها . فاجتمع صلاح الدين بالزعماء وشاورهم في الامر فسكتوا ولم يبدوا ما يقولون سلباً ام ايجاباً . وعند ذاك نهض الشاب ابن اخي صلاح الدين وقال : اذا جاء نور الدين فاننا نحاربه ولا ندعه يدخل مصر . ووافقه في ذلك سائر الشبان زملائه . غير ان والد صلاح الدين وخاله غضبا عليهم ثم تكلم والد صلاح الدين وقال هل بين جميع الحضور من يرغب لك الخير نظيري ونظير خالك ؟ قال صلاح كلا . قال والده : كن على ثقة من اننا انا وخالك اذا شاهدنا نور الدين خررنا امامه وقبلنا الارض خاضعين . واذا كان ذلك كذلك فمن تراه يتجاسر ان يشهر السلاح عليه ؟ فهذه بلاد مصر باجمعها وغيرها ايضاً انما هي لنور الدين واذا شاء ان يعزلك فلا حاجة ان يزحف اليك في جيوشه بل حسبه ان يرسل شخصاً واحداً في سطرين منه فيلقي

الجبل في رقبتك ويقودك الى دمشق ويستعمل على بلاده من شاء . ثم نهض الشيخ نجم الدين وانهى الزعماء. وقال : تقوا باننا جميعاً عبيد لنور الدين وله ان يصنع بنا ما شاء . وبعدما انصرف الزعماء. قال الاب لابنه صلاح الدين: انك فتى بعدُ لا عقل لك ولا سياسة عندك . الا تدري ان نور الدين اذا سمع انك تمرّدت عليه ترك كل شيء وتتبعك حتى يقضي عليك ؟ ومَن من الجنود يا ترى يتركه ويتبعك ؟ اعلم ان ما احدثك به الان لا بد من ان يصل اليه. اذن يجب ان ترسل اليه سفيرًا يخاطبه خطاب متضع ويصرح له بانك عبد (٣٤٦) مطيع لامره . وان احوال مصر مضطربة بعد وان الخوف من الفرنج يصدك عن الذهاب اليه فيخمد غضبه ويغمض عنك . وقد صار مثلما قال الشيخ .

وفي تلك الغضون اقبل جمهور غفير من النوبة الى اطراف الصعيد وسبوا قرى كثيرة . فوجه صلاح الدين العساكر وانتشب القتال بين الفريقين وهلك الكثيرون من الجهتين ثم تقوى السودان وارسل صلاح الدين اخاه شمس الدولة توران‌شاه في جيش ضخم . فانهزم النوبة وتتبعهم العرب وغزوا وقتلوا واحتلوا قلعة ابريم واقاموا بها حفظة ولما عاد العرب عاد النوبة كذلك واسترجعوا قلعتهم وارسل ملكهم سفيرًا الى شمس الدولة وهو في قوص وسأله الصلح فلبى الطلب وشرط ان يؤدي جزية . وسيّر مع سفير النوبة سفيرًا من قبله اسمه سعود الحلبيّ ووصل الى دونقولا العاصمة واطلع على المضايق وعرف ان الاهالي لا يزرعون غير الدخن وان عندهم اشجار نخل وهم يأكلون دخنهم ملتوتاً بنحرهم ومواشيهم وليس عندهم ابنية سوى دار واحدة هي بلاط ملكهم . اما الاهالي فيجتمعون في الخيام والمغاور . قال السفير : شاهدتُ الملك يوماً قد خرج عرياناً وركب حصاناً عرياناً كذلك والتفّ بثوب اطلس غير مخيوط ورأسه أصلع ومكشوف ولما دنوت وسلّمتُ عليه ضحك وقهقه وأمر فكوّروا يدي شكل صليب ودفع لي خمسين رطلًا قمحاً وأطلقني .

وفي السنة ٥٦٩ للعرب (١١٧٣م) سار شمس الدولة المذكور الى ارض اليمن واحتلها وملكها . وفي ايار ١٤٨٥ لليونان (١١٧٤م) مات (٣٤٧) نور الدين في دمشق بداء الخناق . وحدّث الرحبيّ الطبيب الدمشقيّ الذي ادركتُ انا الحقير ابنَيه الطبيبَين الفاضلَين قال: لمّا تفاقم داء نورالدين ودُعيت

الى عيادته مع سائر الاطبا. شاهدناه في بيت ضيّق صغير وقلنا له : ان يفصد الوريد فأبى . ولم نزَ ان نلحّ عليه لاننا كنّا نهابه جدًّا . وما عتم ان مات . وكان رجلًا اعتياديًا طويل القامة دون لحية تحت ذقنه بعض شعرات بسيطا في هندامه وكسوته مبغضاً للعرب المتسلسلين من عليّ . وقد استرجع من الفرنج اكثر من خمسين مدينة وقلعة وابتنى بيمارستاناً كبيرًا ومدرسةً في دمشق ومسجدًا في الموصل فخماً .

وقام بعد نور الدين ابنه الملك الصالح اسمعيل وحالفه جميع الزعما. وخطب له صلاح الدين في مصر وضرب الدراهم والدنانير باسمه . اما سيف الدين غازي صاحب الموصل فلمّا نُعي اليه عنه نور الدين فرح الفرح كلّه واوعز الى المنادين لينادوا باطلاق الحرّية للاهالي في الشرب والسكر والبذخ علانيةً . ثم حشد الجيوش واقبل الى بلاد ما بين النهرين واحتلّ الرها وحرّان وما حولها. وارسل الامير شمس الدين قائد الجيش الحلبيّ الى زعما. دمشق يقول : ابعثوا الملك الصالح الى حلب قبل ان تُنتزَع من يدكم . غير انهم خافوا ان يتولّى هو سياسة الدولة فلم يَدعوا الملك الصالح ان يغادرهم. ثم ارسل صلاح الدين يعاتبهم لانهم لم يستدعوه الى مساعدتهم الى ان قال : لو عرف نور الدين ان بينكم من هو انشط منّي لولّاهُ مملكة مصر . والآن فاني قادم اليكم اذ يترتّب عليّ ان ادبّر مولاي وابن مولاي دونكم . عند ذلك وجّه الزعما. الصالح الى حلب وجعل قيّمة (٣٤٨) سعد الدين الحاجب وكان هذا حافظاً فيما مضى لقلعة الموصل ثم انهزم واقبل الى دمشق .

وتخوّف الدماشقة من صلاح الدين وبعثوا يطلبون الصلح من آموري ملك اورشليم وقبلوا ان يؤدّوا له جزيةً . الّا ان اموري توفّي في عكّة في ١١ تموز بعد مرور اربعين يوماً على وفاة نور الدين . وقد اشتدّ كمد المسيحيّين بوفاة هذا الملك البطل الذي كان عرب مصر وسورية قاطبةً يهابونه . وخلفه ابنه بغدوين الرابع .

ولمّا بلغ قلج ارسلان سلطان قونية خبر وفاة نورالدين حليف دوألنون بن دنشمند زحف الى سبسطية ونوقيسارية وقوماتا وملكها . فسار دوألنون الى

قسطنطينية واستنجد بملك اليونان . وانتهت يوم ذاك زعامة بني دنشمند التي استغرقت ١٢٢ سنة .

ثم ان امير ميافرقين ضايق الارمن السناسنة فارسلوا الى شاه ارمن صاحب خلاط وسلموه حصونهم . وعاد ملك الكرج فانتزع مدينة أني من العجم .

وفي السنة ٥٧٠ للعرب (١١٧٤ م) حشد صلاح الدين جيوشه واقبل الى دمشق يتظاهر بانه قادم ليساعد ابن مولاه ودخل دار ابيه واقام بها ثم وسوس الى ريحان الخصي حافظ القلعة ففتح له بابها ودخلها اخوه سيف الاسلام واصحابه واحتلوها وأيد الخطبة للملك الصالح اسمعيل . ثم غادر دمشق الى حمص وأخذها ووصل الى حماة وملكها . ووصل الى جبل جوشن قرب حلب فحشد اميرها الحلبيين قاطبةً كبارًا وصغارًا في ميدان باب العراق واشاروا الى الصالح ان يخرج ويكلمهم (٣٤٩) الجماعة كلاماً مؤثرًا . فانتصب في راس الميدان وقال : يا ايها الحلبيون انكم انتم ربيتموني وهنذا استغيث بكم وليس لي اب او أخ سواكم . واجهش بالبكاء حتى كاد يختنق وبكوا جميعاً لبكائه وصرخوا صرخة واحدة وقالوا : اننا كلنا عبيد لك وفدى امامك .

اما الفرنج فقد بعثوا السفراء الى صلاح الدين يلومونه وينكرون عليه عمله هذا وقالوا له : انك بعملك هذا تنكر جميل مولاك . فاصغ الى كلامنا واترك حلب والا فاننا بأجمعنا نثب اليك ونناهضك . ولما رأى صلاح الدين ان الامور لن تتشى طبقاً لمأربه وانه يتعذر عليه ان يخدع الحلبيين انقلب عائدًا الى بعلبك واحتلها وسار الى حمص وملك قلعتها . ثم ارسل الحلبيون الى سيف الدين صاحب الموصل يقولون : اذا تركتَ صلاح الدين يحتلّ حلب فكن على ثقة بأنه لن يترك لك الموصل . فسيّر جيشاً كثيفاً بقيادة اخيه عزّ الدين واتفق مع الحلبيين وساروا معاً الى حماة وارسلوا سفيرًا الى صلاح الدين وهو في حمص يلحون عليه ليردّ جميع حصون مولاه ويكتفي بدمشق لا غير ويكون كسائر الامراء الخاضعين للملك الصالح . فأجابهم صلاح الدين : اني لم آتِ لاحارب ابن مولاي بل لاحفظه واحفظ بلاده وخزائنه . ولن اخالف قولكم مطلقاً . لكنهم لما عرفوا استعداده للصلح ظنوه ضعيفاً فاستحقروه وقالوا له : يجب ان تغادر سورية كذلك وتعود الى مصر وليس لك عندنا الا السيف . ثم

زحفوا الى الرستن وأقبل صلاح الدين اليهم وتبارز الجيشان في قرون حماة فانكسر المواصلة والخنيزون وارتدّوا الى ورائهم منهزمين . وأمر صلاح الدين جيوشه ان يقفوا ولا يتتبعوا المنهزمين ولا يقتلوا احداً . وعند ذلك ارسل اليه (٣٥٠) الملك الصالح يسأل الصلح وان يتولّى صلاح الدين دمشق وحماة وحمص ويترك سورية الخارجة للصالح . لكن صلاح الدين لم يرضَ الّا بعدما اضافوا الى ذلك المعرّة وكفرطاب . عند ذلك وافقهم وأقسم بان يخطب للملك الصالح في كلّ البلاد التي تحت يده وان يوافي الى مساعدته كلّما دعت الحاجة .

ولمّا بلغت المستضيء خليفة بغداد اخبار نصرة صلاح الدين ارسل إليه حللاً ملكيّة وسيفاً وألويةً وفرماناً . وكان قطب الدين قيماز قد خرج يومئذٍ على الخليفة وحاصره في بلاطه . فبلغ الخليفة وقصد السطح وأمر المنادي ان ينادي بأعلى صوته ويقول : ايّها البغداديّون هذا وقتُ مساعدتكم لمولاكم وإمام دينكم فأبدوا تحمّسكم في سبيل ايمانكم . وعنت الصيحة المدينة واقبل الاهالي في سيوفٍ وحجيٍ وقراميد وحجار وهزموا قيماز واعوانه الى الصحراء فادركهم العطش وعثروا على صهريج خُنقت فيه الحيّات فشربوا منه وانتشر الوباء فيهم وفي خيلهم وتوجّهوا الى الموصل وهلك اغلبهم في الطريق وقضى بقيّتهم في الموصل .

وفي السنة ١١٨٦ لليونان (١١٧٥م) خرج زعماء ارمينية على مليح أميرهم وحاولوا ان يغتالوه فانهزم الى احد الحصون ووثب اليه الحراس وقطّعوه ارباً اربا والقوا جثّته للكلاب انتقاماً منه لما انزله بالمسيحيّين من الاعذبة والمساوئ . ثمّ استدعى الزعماء روفين ابن اخيه اسطفان من طرسوس وولّوه أمرهم فأجهز على قتلة عمّه مليح ولا سيما لانهم ألقوه للكلاب .

وفي السنة ٥٧١ للعرب (١١٧٥م) أرسل سيف الدين صاحب الموصل الى الصالح في حلب (٣٥١) يلومه أشدّ اللوم لانه هادن صلاح الدين . ثم حشد نحو عشرين الف فارس واقبل الى حلب وفكّ زعماء الفرنج المسجونين هناك منذ امدٍ طويل . وباع قنّص طرابلس بثمانين الف دينار وجوسلين بن جوسلين بخمسين ديناراً والبرنس امير انطاكية بمائة وعشرين ديناراً واستحلفهم ان يساعدوا العرب دائماً .

وحشد صلاح الدين كذلك عساكره وزحف الى اطراف التركمان بين حلب وحماة وتبارزوا فانكسر الحلبيون والمواصلة ولاذوا بالفرار واحتل صلاح الدين خيامهم واثقالهم وشاهد هناك طائفة من الطيور كالايام والحمام والبلابل في اقفاصها ومائة من العاهرات المطربات. واستدعى واحداً من مشخصي الروايات وارسله الى سيف الدين مع تلك الاقفاص وقال له : اذهب وسلم بدلاً مني على سيف الدين وقل له: ارجع الى شنشنتك ولاعب طيورك لانها تحميك كل خطر . وبعد ما اوثق زعماء الموصل وفي جملتهم فخر الدين عبد المسيح فكهم وألبسهم ثياباً واعطاهم خيلاً وهدايا وردهم بسلام. وترك حلب على ما كانت ومر بقلعة بزاعة واحتلها وسار الى منبج وتولاها وعثر في قلعتها على ثلاثمائة الف دينار . ثم اقبل الى عزاز وحاصرها اربعين يوماً واحتلها .

وفي السنة ١٤٨٧ لليونان (١١٧٦م) شاد منوئيل ملك اليونان مدينتين في حدود الاتراك ووضع فيها الجنود وجعلوا يزعجون اصحاب قلج ارسلان وكان منوئيل يلح عليه ليرد الى آل دنشمند اماكنهم فأبى . فوجه الملك ثلاثين الف فارس يوناني مع دوالنون التركي بن دنشمند وحاصروا نوقيسارية (٣٥٢) وكتب لهم اتراكها رسالة في اليونانية بلسان اهاليها النصارى يقولون : لا تصدقوا دوالنون فهو يواصل الاتراك برسائله ويحاول ان يغدركم ويدفعكم الى اصحابه . فخاف اليونان وغادروا المدينة وتنبههم الاتراك وفتكوا بابن اخت الملك . فسخط الملك وحشد جيوشاً ضخمة وسار الى حدود الاتراك وترك العجلات واثقالها . وجعل اليونان ينهبون ويحرقون القرى التركية وهي خالية من الناس والزاد. على ان الرجالة الاتراك خرقوا الجبال والاودية العميقة ووصلوا الى معسكر اليونان ونهبوا ما به واحرقوا عجلاتهم وجعلوا يدحرجون من قمم الجبال حجارا ضخمة سحقتهم هم وخيلهم . وعند الليل ارسل الملك الى السلطان سفيراً يطلب الصلح . فلبى طلبه ولا سيما لانه هو كذلك كان خائفاً. ثم اقام ثلاثة اسراء اتراكاً سيرهم في خدمة الملك حتى وصل الى حدود بلاده. وكان مع اليونان كثير من الكنائس (النقالة) والصلبان والحامل في جملتها صليب يشتمل على قطعة من عود الصليب انتهبها الاتراك جميعها ثم ارسل الملك الى السلطان ذهباً وافرا واسترجع عود الصليب .

وفي هذه السنة مات نجم الدين صاحب ماردين واستغرق ملكه اثنتين وعشرين سنة وعمل النصارى وكنائسهم وادبارهم خير معاملة وخلفه ابنه قطب الدين فتحرش بعشيه صاحب حاني وصاحب دارا ثم صالحهما وأقبلا اليه طائعين . ولما ذاع خبر موته سارع المعديون ليغزوا بلده فاستجمع قواه ووثب اليهم وفتك بالبعض منهم وانتزع منهم (٣٥٣) اثني عشر الف جمل واغنم من بقي منهم .

وفي السنة ٥٧٢ للعرب (١١٧٦م) شخص صلاح الدين ثانية الى حلب فتذلل له الصالح صاحبها وطلب المهادنة اذ تعذر عليه ان يقاومه . فارتضى وابرم صلحاً عاماً مع حلب والموصل وارمينية الصغرى . ثم وجه اليه الصالح اخته الصغيرة فطلبت منه عزاز فأجاب الى طلبها . وبعد هذا غادر حلب الى دمشق واقترن بعصمة الدين امرأة نورالدين وقلد اخاه شمس الدين تورانشاه امور دمشق وعاد الى مصر وابتنى سوراً واحداً يحدق بمدينتي مصر والقاهرة وشاد قلعة فوق الجبل المتوسط .

وفي السنة ٥٧٣ للعرب (١١٧٧م) وهي السنة ١٤٨٩ لليونان (١١٧٨م) زحف صلاح الدين في جيوش كثيفة الى عسقلان وغزا واستأسر وسفك دماء كثيرين من النصارى . فذعر الفرنج وكان ملكهم في اورشليم مبتلىً بداء الجذام فتشجع واجتمع بجنوده واعتذر عن حصانه وخرّ على وجهه امام الصليب المقدس وجعل يبكي فتأثرت قلوب الجنود واقسموا انهم يحاربون ويجاهدون حتى النهاية . بناء عليه أغمضوا عنهم حتى توغل الاتراك في الضواحي وانهمكوا في النهب وكفوا عن استئناف القتال معتقدين ان الفرنج ضعفاء . اما الفرنج فزحفوا اليهم وادركوهم وهم يعبرون النهر . وارسل الرب عاصفة شديدة جرفت الرمال من ناحية الفرنج على الاتراك وأعمتهم . ووضع الفرنج فيهم السيف فتقهقروا وضلّوا وتاهوا في الصحراء القفراء ولحقهم الفرنج خمسة ايام وهم يقتلونهم ويجدعونهم طائفة طائفة ويرتقونهم ويقتلونهم وقد افلت صلاح الدين مع قليلين الى القاهرة . قال المؤرخ : شاهدت (٣٥٤) حاملي البشرى راكبين وسمعت المنادين ينادون في شوارع مصر ان السلطان انتصر والفرنج انكسروا فبادرت لاستخبرهم عن كيفية الانتصار فقالوا : افرحوا وابتهجوا لان السلطان سالم . فعرفت ان البشرى كانت عكس الواقع .

مكتبة صادر

اهدت مكتبة صادر الى ادارة مجلة المشرق الكتب التالية :

من العقد الفريد الجزء ١٦ : الكتابة والكتاب
الاجزاء ١٧ ، ١٨ ، ١٩ : اخبار الغناء
الجزء ٢٠ : امراء المسلمين
الجزآن ٢١ ، ٢٢ : ايام العرب
الجزآن ٢٣ ، ٢٤ : طرائف الشعراء
الجزء ٢٥ : الاعاريض والقوافي
الجزء ٢٦ : النساء والمتزوجون

تحقيق وشرح كرم البستاني

الموزع الوحيد : المكتبة الشرقية ـ ساحة النجمة ـ بيروت

مكتبة دار المعارف

عمر الخيام : رباعيات – تعريب وديع البستاني

حبيب صادر : صحة العقل

الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار احمد فراج : الورقة
لابي عبد الله محمد بن داود بن الجرّاح

الدكتور شارل بلوندل : المدخل الى علم النفس الجماعي – تعريب الدكتور
يوسف مكرم هاشم

عباس محمود العقاد : ابن رشد

حنا الفاخوري : الجاحظ

عادل غضبان : الشيخ نجيب الحدّاد

شارع سيرو بالقاهرة ـ مصر

PUBLICATIONS DE L'IMPRIMERIE CATHOLIQUE

MAURICE DUNAND : DE L'AMANUS AU SINAI — Sites et Monuments. — × 240 pp., 269 simili-gravures, 1 carte. — Préface de M. CHIHA, Mise en pages du Fr. CRUZ-MERMY — 1953.

TOUTE LA GAMME DES DICTIONNAIRES

LE DICTIONNAIRE ARABE CLASSIQUE ILLUSTRÉ (*Mounjed*).
LE DICTIONNAIRE ARABE CLASSIQUE ILLUSTRÉ (*Petit Mounjed*)
LE VOCABULAIRE ARABE-FRANÇAIS.
LE GRAND DICTIONNAIRE FRANÇAIS-ARABE.
LE PETIT DICTIONNAIRE FRANÇAIS-ARABE.
LE PETIT DICTIONNAIRE ARABE-FRANÇAIS.
LE DICTIONNAIRE ARABE ANGLAIS.
LE STUDENT'S ENGLISH-ARABIC DICTIONARY.
LE STUDENT'S ARABIC-ENGLISH DICTIONARY (*sous presse*).
LE DICTIONNAIRE JURIDIQUE, POLITIQUE, COMMERCIAL *Français-Arabe.*
LE DICTIONNAIRE JURIDIQUE, POLITIQUE, COMMERCIAL *Arabe-Français.*

Est en vente

A LA LIBRAIRIE-ORIENTALE

Place de l'Étoile — Beyrouth (Liban)

DISTRIBUTEUR EXCLUSIF DES ÉDITIONS DE L'IMPRIMERIE CATHOLIQUE

وفي هذه السنة تمّ الصلح بين قلج ارسلان وتوئيل ملك اليونان وأقبل قلج ارسلان الى ملطية وشدّد عليها اربعة اشهر ولم يدخلها وأمر جنوده فابتنوا لهم بيوتاً من لبن ليشتوا بها وشادوا له بيوتاً واسعة بحجارة نقلوها من المقابر. اما امير المدينة وهو من عشيرة دنشمند فخاف ان يتفق الزعماء محتجين بالغلا. ويسلّموه المدينة فأرسل الى السلطان في الأمان وسار الى حصن زياد. فاحتلّ السلطان ملطية يوم الاربعاء ٢٥ تشرين الاوّل ١٤٨٩ لليونان (١١٧٨م).

وفي السنة التالية اتفق الفرنج قاطبةً مع الملك بغدوين وابتنوا مدينة على شاطئ الاردن في مكان يقال له مَعبَر يعقوب كي يضايقوا دمشق.

وسار صلاح الدين من مصر الى بعلبك بسبب خروج حاكمها عليه وشدّد عليه الحصار حتى طلب الهدنة وسلّمه المدينة. ثم انقلب الى فلسطين فثار الفرنج وهزموه وغزوا نواحي العرب وانصرفوا. واذ كانوا مطمئنين هادئين كأنهم احرزوا النصر باغتهم كمناء العرب واعتقلوا منهم نحو مائة محارب وقبضوا على رئيس الفرير. ثم توجّه صلاح الدين الى المدينة التي احدثها الفرنج وامتلكها وكان فيها خمسمائة من الاخوة الفرير فلمّا شاهدوا العرب قد تغلّبوا عليهم ألقى البعض بنفوسهم في النار فاحترقوا والبعض في نهر (٣٥٥) الاردن فاختنقوا والبعض على الصخور فترضّضوا وقضوا. وحصدت البقيّة سيوف العرب.

وفي السنة ١٤٩١ لليونان (١١٨٠م) وعك توئيل ملك اليونان ولمّا شعر بدنو الاجل انقطع الى احد الاديار ووضع التاج لابنه ألكس وبايعه. وجعل امرأته وهي والدة ألكس راهبةً واناط بها خزائن الدولة. ونصب اثني عشر زعيماً ليشرفوا على تدبير الجيوش. غير ان الملكة الراهبة ارتكبت القبيح مع واحد من اولئك الزعماء الاثني عشر وحاول سائر الزعماء ان يخلعوا ابنها ويقيموا ابنة توئيل وهي من امرأته الاولى بدلاً منها ويبايعوا زوجها بالملكة ولكنهم لم يتوفقوا. وما عتم ان ظهرت المكيدة وخاف الزعماء. وانهزموا الى الكنيسة الكبرى والتحم القتال ضمن المدينة سبعة ايام وسفكت الدماء. وصوّب احزاب الملك المنجنيقات نحو كنيسة اجيا صوفيا. وسار ثئودوسيوس البطريرك وقابل الملك وامّه فأقسما له انهما لن يؤذيا احداً ممن هو ضمن الكنيسة فخرج جميعهم مطمئنين. لكنّ الملك وامّه خرقا الايمان وسملا عيون الزعماء الاحد عشر وقتلا

احزابهم . فامتعض البطريرك وأبرء الحرم على المدينة جماء، وغادرها الى دير قريب وألقى قرع النواقيس والصلاة تسعة شهور وجعلوا يشيّعون الموتى ويدفنونهم دون صلاة .

وفي تلك السنة وجّه السلطان قلج ارسلان جيشاً الى رعبان فوثب اليه جنود دمشق وهزموه الى قبدوقية . وكان ذلك الجيش منجذاً في محاربة الفرنج .

وفي هذه السنة وهي السنة ٥٧٥ للعرب (١١٧٩ م) مات الخليفة المستضي . وخلفه ابنه الناصر .

بعد المستضي الناصر ابنه

تولّى سبعاً واربعين سنة . ولمّا بويع بالخلافة قبض على الوزير ابن العطّار وزجّه في السجن وأوثقه وانتزع كلّ ما له . ووقعت وفاته ليلة الاربعاء ١٢ ذي القعدة (٣٥٦) ولمّا شيّعوه نار البغداديّون وطرحوه عن كتف حمّاله وفسخوه وشذّوا في ذكره جلّا وسحبوه في البلد ووضع الصبيان بيده مغرفة وهم يقولون : وقّع لنا يا مولانا . وظلّوا يسخرون به حتى اقبل الاتراك ونقلوه ودفنوه . وحدث في تلك السنة غلاء فظيع ووباء قتّال شمل الارض كلها . .

وفي السنة ١١٩٢ لليونان وهي السنة ٥٧٦ للعرب (١١٨١م) زحف صلاح الدين ليناوش السلطان قلج ارسلان بسبب صهره نور الدين بن قرا ارسلان بن داود بن ارتق صاحب حصن كيفا . وكان هذا يسيء معاملة زوجته وهي ابنة السلطان ولا يراعي حقوق الزواج فأرسل يتهدّده . فاستنجد بصلاح الدين فكتب الى السلطان يسأله ان يغفر لصهره فأبى . فاتفق صلاح الدين مع الفرنج الذين في ساحل البحر وحشد الجنود وسار يريد حلب وحلّ في برج قرا حصار عند نهر الازرق بين الحصن وحصن منصور . ثم زحف الى نهر كوكسو واقبل اليه نور الدين فرحّب به وأكرمه . وبعد هذا ارسل السلطان سفيراً الى صلاح الدين وجرت المصالحة بعد ما استحلف نور الدين ان يعيش مع امرأته عيشة مرضيّة ويحترمها احترام ابن لابيه . وارتحل صلاح الدين من هناك الى النهر الاسود ودخل جنوده ليغزوا ضواحي قيليقية وكان دوقين صاحبها قد فتك بجماعة من الرعاة التركمان وسبى نساءهم واولادهم ومواشيهم . فارسل دوقين

كتاب خضوع وتذلل الى صلاح الدين في ذهب وافر وأعتق خمسمائة من الاسرى (٣٥) الاتراك وبعد ما عقدا الصلح سافر صلاح الدين وعاد تاج ارسلان الى ملطية ورمم سورها .

وفي تلك الفتون سرح البرنس صاحب انطاكية امرأته اليونانيّة الشرعيّة واتخذ امرأة زانية . فحرم البطريرك الانطاكي القسيس الذي صلى عليها وحرم المدينة كلّها وألغى قرع النواقيس والصلوات . فسخط البرنس ونهب كنائس الفرنج واديارهم بأسرها . واذ ذاك وافى بطريرك اورشليم مع القامصة وصالحوه ووافقوا على اقترانه بالمرأة الغير الشرعية[1] وردّ كلّ ما سلبه من الكنائس والاديار .

وفي تلك السنة مات سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل . وكان مدمناً الرغد والرفاهية ومعاقرة الخمرة . وعاش المواصلة في ايامه عيشة اطمئنان وخصب . وخلفه اخوه عزّ الدين مسعود ودُعي ابا الفتح وسار سيرة وقيّة منتظمة . امّا صلاح الدين فسار الى دمشق وغادرها الى مصر وانجز بنيان قلعة القاهرة . ومات اخوه شمس الدولة في الاسكندريّة .

وفي السنة ٥٧٧ للعرب (١١٨١ م) مرض الملك الصالح اسمعيل صاحب حلب ولمّا شعر بدنوّ الاجل ارسل الى ابن عمّه عزّ الدين مسعود يخفّه ليسارع ويتولّى مكانه قبل قدوم صلاح الدين . واجتمع بالزعماء واستحلفهم في ذلك ومات . قيل ان احد العبيد سقاه سمّاً في عنقود عنب وقيل بل مات بداء المفاصل . وقد بكاه الحلبيّون (٣٥٨) واليارقيّون القاطنون في ضواحي حلب . وأرسل هولاء الى عماد الدين زنكي صاحب سنجار يستدعونه ليتسلّموه المدينة . لكنّ الحلبيّين ارسلوا يتهدّدونه لينصرف عنهم والّا فهم مستعدّون ان يبتقلوه ويسيئوا معاملته . فلم يرَ الّا الرحيل عنهم وعندئذٍ وصل عزّ الدين مسعود من الموصل وقصد القلعة واحتلّها واقترن بامّ الملك الصالح وارسلها الى الموصل . ثم فتح الخزائن وهي مملوءة منذ عهد نور الدين وزنكي اموالًا وافرة وارسلها بأجمعها الى الموصل . وعقد هدنة مع بوهيمند البرنس صاحب انطاكية لمدة سنتين

١) لم يوافق البطريرك والقامصة على الزواج الثاني بل تركوه مقيّدًا بالحرم بسببه . واكتفى البطريرك بالقاء حرمه للمدينة لا غير .

وترك في قلعة حلب ابنه نور الدين الصغير واقام له وصياً وتوجه الى مرج قرا حصار وبعث سفيراً الى اخيه عماد الدين صاحب سنجار وكان قد غادرها في عياله وابنائه واهله الى قرقيسيا معوّلا على الاستغاثة بصلاح الدين ليساعده ويعيد اليه مملكة ابيه . فقال للسفير اني ان ارجع ما لم يعطني حلب او الموصل او ما بين النهرين . ووافق عزّ الدين على ان يوليه حلب فقط ويقيم ابنه في قلعتها . فلم يوافقه عماد الدين محتجاً بانه لا يرضى ان يكون تحت طاعة ابنه في حلب . فأضاف عزّ الدين الى ذلك عَرّبان والمجدل وغيرهما من بلاد الخابور فلم يرضَ عماد الدين . عند ذلك اشار الزعماء بان يعطيه حلب وقلعتها ولا يناهضه بما لا يتيسّر له ان يصونه من صلاح الدين . ثم قالوا له : انك لم تترك شيئاً في حلب وقد نقلتَ ثروتها جميعها الى الموصل واخيراً اتفق الاخوان واستولى عمادالدين على حلب وضواحيها وترك سنجار والموصل لعزّ الدين .

وفي تلك السنة سارت سفن كبيرة من سفن الفرنج الى دمياط وهم في مرادعة مع العرب (٣٥٩) لكن العرب غدروا بهم واعتقلوا الفين وخمسمائة من تجارهم وملاحيهم محتجين بانتهاء مدّة الهدنة . ولذا خرج الفرنج الى مدينة ايالة على ساحل البحر الاحمر واعدّوا سفناً كثيرة ومراكب وساروا في اماكن لم تسر فيها سفن افرنجية قطعاً واصلاً واحتلوا كثيراً من سفن العرب وهي موسقة اموالاً وذخائر وافرة وفتكوا بجماهير من اهالي عيذاب وسيّر صلاح الدين من الاسكندريّة سفناً في احمال جمالٍ في البحر ادركت سفن الفرنج وقتل الكثيرون من الجهتين .

وفي السنة ١٤٩٤ لليونان (١١٨٣م) احتال اندرونيقس الزعيم اليونانيّ الذي سبق الملك منوئيل فطرده من العاصمة فأغوى ألكس الفتى وامّه وعاد الى قسطنطينية يتظاهر بالطاعة . وما عتم ان زجّ في البحر امّ الفتى وابنتها وصهرها وفتك سرّاً بالفتى الكس . وقتل اكثر من الف زعيم واحرقهم وسمل عيون بعضهم . وحمل هذا الشيخ النجس على امرأة الكس واغتصبها ونفى الفرنج من العاصمة . ولمّا انصرف هولاء احرقوا اربعة عشر الفاً من اديار وقرى بيلاد اليونان . وبعد ذلك اقبل ملك صقلّية واجتاح مدناً شتى يونانيّة واخلاها من السكان .

وفي السنة ٥٧٨ للعرب (١١٨٢م) زحف صلاح الدين من مصر الى دمشق

والى حلب وحاول ان يحتلها. لكن الزعماء اشاروا عليه ان يعبر الفرات اولاً ويحتل مدن ما بين النهرين وآثر ثم يعود الى حلب ويتملكها بسهولة. فاقتنع وعبر الفرات ومرّ بالرها وحرّان واحتلهما واحتلّ الرقّة ووصل الى عرّبان فدفع اليه حرّاسها المفاتيح فتولاها وتولّى بلدة ماكسين. وعامل باللحسنى اهالي الخابور وسار (٣٦٠) الى نصيبين وتهيّأ اصحابها لمبارزته فوضع هناك جيشاً صدّهم عن العدوّ والرواح فتضايقوا وسألوه المدينة. وسار الى الموصل وحاصرها من جهاتها كلها. فأرسل عزّ الدين صاحبها الى خليفة بغداد يسأله ان يتوسّط في الصلح بينه وبين صلاح الدين فلبّى طلبه وأرسل سفيراً في ذلك. فطلب صلاح الدين ان يؤدّي له المواصلة نفقات رحلته او يتخلّوا له عن حلب. فقالوا: ليس عندنا ذهب امّا حلب فصاحبها هو عماد الدين وليس في امكاننا ان نعطي ما لا نملك. فتركهم وانطلق الى سنجار ونازلها وانتزعها من شرف الدين بن قطب الدين مودود. ومن هناك اقبل الى دارا وقابله صاحبها صمصام الدين بهرام من بني ارتق وادّى له الطاعة فترك له المدينة وعاد الى حرّان وسرّح الجنود ليستريح كلٌّ منهم مدّة الشتاء. وصوم العرب وعيدهم وظلّ هو هناك مع القليلين.

وتخوّف المواصلة ان يعود اليهم صلاح الدين في الربيع ويحتلّ مدينتهم كما احتلّ سنجار فأرسلوا الى شهرامان صاحب خلاط يستنجدونه فلبّى طلبهم مجوداً واتفق مع ابن اخته قطب الدين ايلغازي بن ألبي بن تيمورتاش صاحب ماردين خال عزّ الدين صاحب الموصل. واحتشد الماردينيّون والموصليّون والخلاطيّون في البارعية وجاءهم كذلك الف وسبعمائة فارس من الياروقيّين المجاورين لحلب وتأهبوا قاطبةً لمناوشة صلاح الدين. فلمّا سمع باحتشادهم ملكته الرعدة فارسل يستعجل جيوشه ليوافوا اليه فاجتمعوا في مدّة ثمانية ايام قادمين من حماة وحمص وما بين النهرين (٣٦١) وجاء كذلك ابن قرا ارسلان من حصن كيفا. ولمّا رأى شهرامان تأهّبَ اصحاب صلاح الدين للقتال وضعف الذين معه قال لصاحبَي الموصل وماردين: لقد اقبل الشتاء وأنا لستُ ارى فائدة من الحرب فالأحرى ان يعود كلّ منّا الى بلده ثم نجتمع في الربيع ثانيةً. هكذا تفرّقوا وتشتّتوا دون جدوى. ثم ارسل صلاح الدين الى الخليفة يخبره بما صنع المواصلة وانهم هم الذين يتحرّشون به وحصّل منه الأمر لينازل آمد.

وفي محرم ٥٧٩ للعرب وايار ١٤٩٤ لليونان (١١٨٣ م) احتلّ صلاح الدين آمد بعد حصار شديد . وكان صاحبها ابن نيسان يقاتل الاعداء قتالاً عنيفاً . غير ان الآمديين اغضوا عنه وسبب ذلك انه لمّا ازدحم اصحاب صلاح الدين ما بين سوري المدينة انقضّ عليهم الاهالي وضغطوهم هناك وقتلوهم وكتب صلاح الدين على الرايات عبارة تهديد قاس واقسام مغلظة بانه لن يحيد عن المدينة ما لم يحتلها ويحرقهم جميعاً ان رفضوا تسليمها . فخافوا وارتخت عزائمهم وارتعب ابن نيسان وطلب الامان له ولاهله واملاكه . فامهله صلاح الدين ثلاثة ايام ريثما ينقل ما شاء نقله . ثم دخل المدينة . وقد نقل ابن نيسان ما نقل من ذهب وفضة وحجار كريمة وآنية . قيل انه لم يتيسّر له ان ينقل عُشرَ اموالهِ في تلك الايام الثلاثة اذ كانت كثيرة جدّاً . وبعد ما احتلّ صلاح الدين المدينة ولّى عليها نور الدين بن قرا ارسلان مع كلّ ما بها . فقيل له : انك انّما وعدته بالمدينة لا بكلّ ما بها ممّا ينيف على ثلاثة آلاف دينار . فقال صلاح الدين (٣٦٢) : لا يجمل بنا ان نعطي صديقنا مدينة فارغة . قيل انهم عثروا في احد ابراجها على مائة الف شمعة وكان في مكتبتها الف الف واربعون الف مجلّد اعطاها صلاح الدين للقاضي الفاضل كاتبهِ . وايّد ابن قرا ارسلان في ولايته وحلف له وعبر الفرات الى عينتاب واطاعه صاحبها نصير الدين بن كمرتكين ثم غادرها الى حلب وحاصرها . وكان عماد الدين صاحبها قد تسلّمها فارغةً حتى انه لم يبقَ له ما يقوم بحاجات جنوده ولم يحصل على شيء من الحلبيّين ومن اهالي ضواحيها . ولمّا قال احد الزعماء ان ليس عندي ما اودّيه لك قال له الزعيم : بع حلي امرأتك واعطِ المحاربين ان شئتَ ان تكون ملكاً . وأفضى به العوز الى حدّ ان الاهالي كانوا يقدّمون الطعام يوماً فيوماً له ولاهل بيتهِ . ذلك ما حمل الزعماء والجنود على ترك الحرب بخلاف الاهالي فقاتلوا يواصلونها .

ولمّا تعذّر على صلاح الدين احتلال حلب عنوةً شاور زعماءها سرّاً واستمالهم بالعطاء . فاشاروا على عماد الدين بالتسليم والاكتفاء باماكن اخرى ذلك لئلّا يأخذها غيره ويبقى هو دون شيء . ثم قالوا له : هل تظنّ ان العامّة تدافع عنك وتكتفي برزقها . وقد نفدت الاقوات ولم يبقَ عندك ما تعطيهم ؟ تبصّر

اذن في ما يجب ان تصنعه. ارتضى عماد الدين بما اشاروا وارسل الى صلاح الدين يطلب سنجار ونصيبين والخابور والرقة بدلا من حلب. فلبى طلبه وكتبا له وارسل اليه الصك موقعاً بخط يده وحلف له انه يتخلى له عنها بأجمعها. ولما سمع (٣٦٣) الحلبيون ذلك شملهم الكمد واحتشدوا عند القلعة وجعلوا يشتمونه. وعلقوا امامه طستاً ورداء وصاحوا قائلين: تباً لك من خنثى! لا يصلح لك الا غسل الاواني. وكان ينظر اليهم من الشرفة ويسمع شتائمهم.

وليلة ١٨ صفر من تلك السنة انحدر عماد الدين من القلعة وخرج الى خيمة أُعدَّت له وتسلمها صلاح الدين مع المدينة. وتوجه عماد الدين الى سنجار وتولاها مع البلاد المذكورة. على ان صلاح الدين سُرَّ باحتلاله حلب اكثر من سائر المدن التي احتلها. قيل انه لما كان مارًّا بدرجات القلعة كرَّر ما ورد في القرآن نقلاً عما كتبه دانيال النبي فقال: «ان العلي يتسلط على مُلك البشر ويجعل له من يشاء» (دانيال ٤: ٢٩). ثم التفت وقال لمن معه من الزعماء: الآن عرفتُ ان المُلك استتبَّ لي. صدِّقوني اني لم اجسد نور الدين المتوفى الا على حلب ولم اشتهِ سواها. وبعدما احتلها صلاح الدين ألغى جبايات جمة ونقص الضرائب ووزع اموالاً طائلة بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسين الف دينار.

وأُصيب في هذه المعمعة تاج الملوك توري اخو صلاح الدين الصغير ومرض اياماً ومات. ولما عاده اخوه قال له: ينبغي ان تفرح وتبتهج لاننا ملكنا حلب وهي لك منذ الآن. فقال له تاج الملوك: ان السيادة انما تفيد الاحياء لا المدفنين مثلي. كن على ثقة بأنك ملكتها بأثمان غالية اذ ضيَّعت اخاك باحتلالك اياها. وكان تاج الملوك هذا منجِّداً في الحروب. فبكى صلاح الدين وبكى معه الحاضرون بكاء مرًّا.

وحاول صاحب حارم يومئذٍ ان يبيع بلدته من الفرنج وشعر الحرّاس بما انتوى. ولما خرج يوماً الى التنزه وعاد اغلقوا الابواب في وجهه (٣٦٤) وكتبوا الى صلاح الدين ليأتي ويحتل المدينة. فأرسل لذلك ابن اخيه وابن عمه لكنهم بعثوا يطلبون حضوره بذاته فلبى طلبهم وانطلق وملك البلد واجزل لهم العطاء. وأخرجهم من القلعة ولم يتعدَّ على صاحبها لان الزعماء دافعوا عنه وقالوا ان الحرّاس خدعوه.

واقام صلاح الدين ابنه الملك الظاهر في قلعة حلب وعاد الى دمشق ومنها سار في جيوشه الى قلعة الكرك وحاصرها حصاراً شديداً . فاحتشد الفرنج واعتزموا الهجوم فشعر صلاح الدين وانقلب الى دمشق. واقبل اليه اخوه الملك العادل من مصر في ذهب كثير فولاه حلب وملحقاتها من رعبان وسواحل الفرات حتى حماة . ولما دخل العادل قلعة حلب غادرها الظاهر بن صلاح الدين بعد ما اقام بها ستة أشهر وعاد الى ابيه .

وفي السنة ٥٨٠ للعرب (١١٨٤م) أعدّ صلاح الدين العدّة ليزحف الى الكرك وأرسل فاستدعى نور الدين من حصن كيفا والعادل اخاه من حلب وتقيّ الدين من مصر واحتشدوا جميعاً هناك . واحتشد الفرنج كذلك فتخوّف صلاح الدين وامر ان يحرقوا المنجنيقات ويتركوا الكرك فانتقلوا الى بلد السامرة وغزوه .

اما البرنس أرناط[1] صاحب الكرك فقد حصّنها تحصيناً متيناً. وسار البرنس صاحب انطاكية الى الخابور في مائتي فارس وغزا ضواحيها وفتك بالكثيرين من العرب. وهم مجتمعون في جُنبر الحديد ووثب الى الكمناء بالجبل وهم اربعمائة راجل وعشرون فارساً وأجيز عليهم كافة .

وفي تلك السنة مات قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين ألبي بن تيمورطاش ابن ايلغازي بن (٣٦٥) أرتق صاحب ماردين وخلفه حسام الدين يولق ارسلان وهو بعدُ فتى . واقام طاهر الدين شهرامان خالَهُ وصيًّا له اسمه نظام الدين . واقترن نظام الدين بامّ الفتى وساس المملكة خير سياسة . ثم مات الفتى وله اخ اصغر منه اسمه قطب الدين باسم ابيه فجعله نظام الدين مكان اخيه . واصبحت السياسة بيده ويد عبده لؤلؤ . ولما نما الفتى وعرف انه متولٍّ بالاسم لا بالفعل عاد يوماً نظام الدين وهو مريض ولما خرج من عنده سار معه لؤلؤ الى الباب كرماناً له . فوصلا الى مكان ضيّق واستلّ قطب الدين السكين وضرب لؤلؤ وفتك به وانقلب الى نظام الدين وهو مضطجع في فراشه فأجهز عليه كذلك . واخذ الرأسين وألقاهما الى الزعماء من القلعة. وما ان شاهدوهما

١) هو ارناط دي رونود .

حتى ملكهم الرعب واذعنوا له بالطاعة واستغرقت وصاية نظام الدين عشرين سنة وتمّ قتله في السنة ٦٠١ للعرب (١٢٠٤م) .

وفي السنة ٥٨١ للعرب (١١٨٥م) سار صلاح الدين الى حلب ثم عبر الفرات الى الرها وانتزعها من مظفّر الدين بن زين الدين صاحبها . واستأنف السير الى راس العين ودارا وجاء الى زيارته عماد الدين بن قرا ارسلان بدلًا من اخيه نور الدين الذي كان مريضاً . ومن هناك سار صلاح الدين الى مدينة بُلَد ثم الى الموصل واقبل اليه صاحب اربيل زين الدين بن علي كوجك . وكان مظفّر الدين صاحب حرّان مع صلاح الدين . ولمّا ضايق صلاح الدين الموصل خرجت اليه امّ عزّ الدين صاحبتها وهي ابنة ارتق وخرجت معها بنت نورالدين ابن زنكي وتوسّلتا اليه ان يترك المدينة لعزّ الدين متذكرًا (٣٦٦) الايام القديمة وعوارف آل زنكي وبكتا امامه وتشبثتا بأذياله فلم يكترث لهما . فتركتاه وانقلبتا خائبتين . فهاج المواصلة عند ذلك وماجوا كبارًا وصغارًا وهم يعربون عن ولائهم لآل زنكي وتصافقوا على احتلال الأسوار وعلى الجهاد في القتال . وجعلوا يستحقرون صلاح الدين بكونه غامطاً لمعروف مواليه . فلم يرَ صلاح الدين ألّا ان يترك الموصل ويتوجّه الى خلاط وقد بلغه ان صاحبها شاه ارمن مات وناب منابه بكتمر عبده وأحسن الى الخلاطيّين واحبّهم واحبّوه حبًّا جمًّا . ولمّا سمع ان البهلوان بن ايلدكز سلطان العجم قادمٌ ارسل الى صلاح الدين يستنجده فيسأله المدينة . فسار اليه ورآه متحضّناً فلم يخرج الى لقائه . ثم وصل شمس الدين البهلوان من العجم وحلّ في الجانب الآخر من المدينة واستعدّ ليحاربها . لكنّ الزعماء قالوا له : اذا ضايقت بكتمر ومال الى صلاح الدين فلن يتيسّر لك ان تربّاح او تنجح . بناء عليه ارسل البهلوان الى بكتمر وطيّب قلبه وزفّ اليه ابنةً من ذويه وتركه وانصرف .

ولمّا رأى صلاح الدين ان الخلاطيّين والعجم قد اتفقوا انقلب الى ميافرقين وكان صاحبها قطب الدين ملك ماردين قد مات وتولّاها ابنه الفتى كما ذكرنا . فحاصر صلاح الدين المدينة وكان قائدها اسد الدين بريقش وكانت خاتون امرأة قطب الدين صاحب ماردين كذلك هناك مع بناتها فاخذت تحمّس المحاربين وتشجّعهم . ولمّا طالت الحرب (٣٦٧) ارسل صلاح الدين يلاقي المرأة ويعدها

بأخذ احدى بناتها زوجةً لابنه. فارتضت وسألته أن يتخلى لها عن قلعة الهناخ ثم سألته المدينة وارتحلت الى تلك القلعة .

واقبل كذلك قطب الدين سقمان بن نورالدين بن قرا ارسلان صاحب آمد الى زيارة صلاح الدين فرحّب به أجمل ترحيب ثم عاد الى مدينته . وبعد هذا غادر صلاح الدين ميافرقين الى ساحل نهر قرمان والى كفر زمار على ساحل دجلة .

امّا المواصلة فتضايقوا جدًّا وارسلوا تكرارًا المرأتين المذكورتين الى صلاح الدين يتوسّلون اليه في الصلح والموادعة . وتوسّط بين الفريقين عماد الدين صاحب سنجار . وتخلّى عزّ الدين صاحب الموصل لصلاح الدين عن شهرزور وعن الزابين وبيث وازيق وسائر الشرق وارتضى ان يخطب له وان تضرب الدراهم والدنانير باسمه . وبناء على ذلك عُقد الصلح ما بينهما . وانقلب صلاح الدين الى حرّان ومرض هناك وادنف ثم تعافى وكان معه ابن عمّه ناصر الدين ابن اسد الدين شيركوه فغلب على ظنّه ان صلاح الدين يموت لا محالة فتركه وعاد الى حمص مدينته واجتمع بالشبان واستحلفهم فقرروا بانه متى مات صلاح الدين يتفقون على ان يخلفه هو في الملك . وقد شاء الله تعالى فتعافى صلاح الدين ومات ناصر الدين وتوجّه صلاح الدين الى حمص واحتوى على كلّ ما كان له وولّى مكانه ابنه الفتى الملك المجاهد . قيل انه بعد سنة زار هذا الفتى صلاح الدين فسأله : الى اين وصلتَ من القرآن ؟ فقال الفتى الى الآية : ان آكلي اموال اليتامى انما يأكلون نارًا في بطنهم. فدهش صلاح الدين واثنى على ذكائه وقال : ان كان هذا الفتى قد فهم ما قال لزم ان نخافه .

وفي السنة ١٤٩٦ للاسكندر (١١٨٥ م) تحنّز (٣٠٨) اندرونيقس الطاغية ليفتك باسحق الذي بقي من اسرة منوئيل الملكية فتحصّن اسحق في دارة وارسل اندرونيقس قائد العسكر في طلبه. فما كان من اسحق الا ان استلّ السيف وأجهز عليه ثم امتطى حصانه وخرج يريد الكنيسة الكبرى والسيف بيده مخضّباً بالدم وهو يصرخ ويولول . فتبعه ربوات الاهالي وانضمّ اليهم جمهور من الزعماء المناوئين للطاغية. ودخلوا الكنيسة واضطرّوا البطريرك فتوّج اسحق ملكاً. وما ان سمع اندرونيقس حتى فرّ من البلاط يريد المزيعة مجرّاً. فادركوه

وردّوه الى العاصمة واخذوا يقطعونه بالسكاكين وينهشونه وينكّلون به أشدّ التنكيل ثم احرقوه على مرأى من الجماهير.

وفي هذه السنة اشتدّ داء الجذام على بغدوين ملك اورشليم فاستودع المملكة لابن اخته الصغير بغدوين (الخامس) وما عتم ان توفّاه الله تعالى.

وفي السنة ٥٨٢ للعرب (١١٨٦ م) تعافى صلاح الدين وغادر حرّان الى حلب وحمص واستيقن ان ناصر الدين ابن اخيه شمس الدولة قد مات فانتزع قلعة حمص من ابنه. ولقي فيها موادّ وافرة ثم سار الى دمشق. وانقلب فاخذ حلب من العادل اخيه واعطاها لابنه الملك الطاهر واعطى دمشق لابنه الثاني الملك الافضل. واعطى مصر لابنه الملك العزيز وبعثه اليها مع العادل اخيه. وكان تقيّ الدين ابن اخيه هناك فلمّا سمع ان مصر انتزعت من يده ارتاب واستعدّ للذهاب الى افريقية. غير ان صلاح الدين ارسل يلاطفه واستدعاه اليه وطيّب خاطره وذكر له انه انما يرغب اقامته لديه طمعاً بقوّته. وولّاه حماة والمعرّة وسلامية ومنبج وقلعة نجم واضاف اليها ميافرقين (٣٦٩). وارسل فاستحضر ابنه الملك المنصور من مصر مع جيوشه. غير ان تملوكه يوزباه أبى القدوم اليه وانطلق الى المغرب وملك افريقية.

وفي السنة ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) كان اجتماع الكواكب السيّارة الستة في برج الميزان سوى زحل فقد كان على شكلين في ١٤ ايلول و٢٩ جمادى الآخرة. وسبق المنجّمون فقضوا انه سيحدث طوفان عموميّ في ريح شديدة ويهلك البشر قاطبة. ويكون مثله مثل طوفان نوح اذ اجتمعت الكواكب في برج الاسماك واغرقت المياه الارض كلّها؛ وقد صدّق قلج ارسلان سلطان قونية ذلك الزعم اكثر من كلّ الناس وأنفق مبالغ طائلة في حفر سراديب في قلب الارض وابتناء بيوت محكمة عميقة. غير ان الله سبحانه وتعالى كذّب زعم المنجّمين. ولما كان ذلك اليوم المحدود وقد اعتصم الكثيرون بالسراديب والمغاور لاح الجوّ صافياً نقيّاً والهدوء سائداً اكثر من سائر الايام ولم يحدث الا كسوف اعتيادي في الشمس. وسقط المنجّمون من عيون الملوك والعامّة بسبب كذب رأيهم. وان منجّماً من مشاهيرهم كان يقول: ان المنجّمين غير صادقين في زعمهم. فاستدعاه السلطان واستخبره فأكّد له قوله بتوقيعه

وامضائه مصرّحاً بانه لن يحدث ما يدّعيه المنجّمون ولن يُصاب احدٌ بأذىً. ولمّا تحقّق كلامهُ استفسره السلطان وقال له: كيف عرفتَ ذلك؟ فقال اني لم أقل ما قلتهُ استناداً الى علم التنجيم غير اني عرفتُ انه اذا حدث الطوفان فلن ابقى انا ولا يبقى من يلومني. واذا لم يحدث اكون قد ربحت الجائزة وقد ربحتها. فضحك السلطان وجاد عليه وأطلقه.

وفي تلك الفتن عقد البرنس صاحب انطاكية الصلح مع صلاح الدين وقبض بالحيلة على روفين صاحب قيليقية واوثقه بسلاسل حديدية واعتقله. وحشد الجنود وزحف الى بلاده فناهضه لاون مناهضة البطل وردّه الى بلاده خازياً. وبعد هذا (٣٧٠) دفع له الارمن ثلاثين الف دينار مع المصيصة وادنة فأطلق روفين. غير ان روفين انقلب فاسترجع المدينتين فسخط البرنس وجعل يعيث وينزو بلاد قيليقية جميعها.

وفي تلك الاثنا، قُتل البهلوان سلطان العجم وحدثت معامع طاحنة بسبب ذلك. وتحرّش الاكراد والتركمان كذلك في اطراف نصيبين. ذلك ان تركمانياً ذهب فتزوّج بتركمانيّة من غير عشيرته. ولما مرّ اهالي العرس بحصن من حصون الاكراد ببلد زوزان وقف الاكراد في طريقهم وطلبوا منهم وليمة العرس. واختلف التركمان في ذلك فشدّ عليهم الاكراد وخطفوا العروس وعادوا الى حصنهم. ومن ثم حصل قتال شديد وقُطعت الطرق ونُهبت البضائع وقُتل من كلتا الجهتين زهاء عشرة الاف نسمة. ثم احتشد ثلاثون الف كرديّ او اكثر ونازلوا التركمان بجانب الخابور فانكسر الاكراد وسقط قتلاهم منذ شواطئ الخابور حتى نصيبين. ثم تبارز الفريقان ثانيةً بضواحي الموصل وانكسر الاكراد كذلك. واغار التركمان على الاكراد غير مرّة وشدّوا عليهم حتى هزموهم الى قيليقية واتخنوا في الرجال والنساء والفتيان. هكذا أفنى التركمان الاكراد من سورية وما بين النهرين وتوغّلوا في ارمينية وقبضوا على ستة وعشرين الفاً من الارمن واستاقوهم عبيداً وباعوهم. واحرقوا دير كرابيد الكبير وفتكوا برهبانه. وقتلوا في تلبسم مائة وسبعين رجلاً سريانياً. واجهزوا على مائتي شاب سريانيّ من حملة السلاح في قرية أمرون ببلد قلودية التابعة لملطية. واحدثوا معامع جمة في قبدوقية وملطية بأسرها. والتحم القتال كذلك بين العرب

والاسميليين وبطش بعضهم ببعض بطشاً ذريعاً .

وفي تلك السنة حصل نزاع بين الفرنج . ذلك ان صاحب طبرية قبل وفاته سلم ابنه الصغير الى قنص (٣٧١) طرابلس لينهض بتربيته . وما عتم ان مات الصبي وافضى الامر الى امه . فكلفت برجل اسمه جي لم يكن من اسرة ملكية واقترنت به وتوجته ملكاً[1] . ومن ثم سخط قنص طرابلس وقصد صلاح الدين وانضم اليه وثم يحفز الحفائر لملكة طبرية ولسائر النصارى .

وفي السنة ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ م) رأى صلاح الدين ان الفرنس ارتاط نكث اقسامه ونهب قافلة تجار عرب وحشد الجنود وتهيأ للحرب فسار الى الكرك في جنوده واكتسح اشجارها واتلف ما حولها من القرى . وغادرها الى شوبك وفعل مثل ذلك . وزحف ابنه الملك الافضل الى طبرية وغزا وبرز الفرنج وناوشوا العرب وكاد يُقضى على العرب قضاء مبرماً لو لم يساعدهم الحلبيون . وبعد هذا عاد الفرنج الى المدينة وساء الافضل ومن معه الى صلاح الدين . ثم اجتمع ملوك الفرنج وزعماؤهم وتشاوروا في منازلة العرب . لكن القنص صاحب طرابلس قال لهم : اعلموا يا اخوتي ان في مبارزة صلاح الدين خُطرًا جسيماً . فقد كان فيما سبق رجلاً بسائر الرجال واصبح اليوم مستولياً على مصر وفلسطين حتى بلاد المشرق . فارئى من المفيد ان نعقد معه الصلح ويطمئن كلٌ في بلده .

غير ان جي الملك الحديث الذي اقترن بملكة طبرية اعتز بنفسه وقال : لا بدّ من المبارزة . فقال له القنص : سترى عاقبة غايتك . اما صلاح الدين فاجتمع كذلك بزعمائه وشاورهم (٣٧٢) فقالوا : لا يوافق الان ان نبارز الفرنج وهم في فورة اجتماعهم . فالاجدر ان نضعفهم شيئاً فشيئاً حتى اذا اخذوا يتشتتون استسهلنا مناوشتهم والبطش بهم . غير ان صلاح الدين لم يوافقهم بل قال لهم : متى يا ترى يجتمع لديّ مثل هذا الحشد الغفير ؟ فالاجدر ان تتشجعوا وتتشددوا وتبارزوهم . وما يريده الله تعالى يفعله . قال هذا

---

[1] هي ابزابيل اخت بلدوين الرابع ملك اورشليم ووالدة بلدوين الخامس . فلمّا ترمّلت اقترنت بجي دي لوسنيان . ولمّا توفي بلدوين الرابع والخامس افضت المملكة اليها واصبح زوجها غي ملكاً على اورشليم لا على طبرية فقط .

وركب واركب جنوده وزحفوا الى الاردن وحطّوا رحالهم على شواطئ بحيرة طبرية . واحتشد العرب في صفورية . واقام الصفان اياماً لا يناوش احدهما صاحبه . وبعد هذا وجه صلاح الدين قسماً من جيوشه في طريق مجهولة الى طبرية ليلاً . ولما اصبح وثبوا ودخلوا المدينة ووضعوا فيها السيف والنار . وتحصنت الملكة[1] في القلعة .

اما جي زوجها فلما سمع الخبر انحلت عزيمته ولكنه تشجّع وشجّع الفرنج وركبوا جميعاً وانقضّوا على العرب . ولما كان المساء اقام الصفان احدهما تجاه الاخر واحيوا الليل كله ساهرين . وغلب العطش على الفرنج لان العرب كانوا محتلين ناحية الاردن وشدّدوا غزائهم للمبارزة . ولما اصبحوا وشاهد العرب شجاعة الفرنج وهم يقتحمون اقتحام الدبابير ولا يتقهقرون اضطربوا كل الاضطراب وفشلوا وارتعدت ركبهم . وما ان شاهدهم صلاح الدين على تلك الصورة حتى بادر الى الوسط واوقع فيهم صيحة عظيمة واسمعهم كلمات تزوجة بالعسل والمرارة تارة يشجّعهم وطوراً يهدّدهم . وان شاباً باسلاً اسمه منغوراس وهو مملوك صلاح الدين استبسل وخرج من صفوف العرب وبلغ الى وسط الصفين فادركه شاب فرنجي باسل وطعنه برمحه والقاه عن حصانه والتحى فقبض على ضفيرته وجره نحو صف (٣٧٣) الفرنج واحتز رأسه . ولما شاهده الفرنج تقوّوا واشتدّوا ظانين انه احد ابناء صلاح الدين .

اما قنص طرابلس وكان قلبه ملوءا غشاً ومكراً فتخوف ان يحرز الفرنج الغلبة التامة وتغدو مشورته بالعدول عن القتال لاغية فتظاهر كمن يحاول تتبع العرب والبطش بهم . ففتحوا له الطريق ما بين صفوفهم لانهم سبقوا فعرفوا ان قلبه غير مستقيم مع ابناء دينه . وهكذا مرّ بينهم وتوجه الى طرابلس مدينته . وقد اصبح انهزامه هذا مدعاة كبرى الى انكسار الفرنج ولم يبق بينهم من يثق بصاحبه . غير انهم لم يروا بدّاً من المبارزة فخاضوا ما بين العرب وسلّت السيوف ولم يستفيدوا شيئاً اذ قطعوا الوجاء بسبب انهزام القنص . وعند ذاك حمل عليهم العرب حملة شعواء . واوثقوا جي صاحب طبرية[2]

١) لم تكن ايزابيل ملكة اورشليم بل امرأة ريموند قنص طرابلس .
٢) ملك اورشليم .

والبرنس ارناط صاحب الكرك وجمهورًا من الاخوة الدواوية الاسبيتالية[1] وغيرهم ولم يتمكن من الهزيمة الا القليلون .

ولما خمدت الحرب جلس صلاح الدين في خيمته واجتمع عنده زعماؤه وامر باحضار جي زوج الملكة صاحبة طبرية والبرنس ارناط . وابدى الاكرام لجي واجلسه الى جانبه واجلس ارناط كذلك . وكان العطش قد اجهد جي فطلب ماء ليشرب . فامر صلاح الدين فأتوه بماء ممزوج بالثلج فشرب نصفه ودفع النصف الثاني لارناط . فقال له صلاح الدين : لا يجوز ان تسقيه دون امري. قال جي : ان الاعتقال موت فلا تُمته موتتين (٣٧٤). والانكسار قتل فلا تقتله قتلتين . فاعجب صلاح الدين بكلامه واعتزم ان يعفو عن ارناط لكن الزعماء حرضوه على قتله وقالوا : لا يستحق هذا ان يبقى حيًا لانه اقسم مرارًا وحنث في يمينه . وبعد هذا ارسلهما كليهما الى خيمة اعدّت لهما . وما مرت ساعة حتى بعث فاحضر ارناط وحده واستل السيف وفتك به بيده[2] . وكان ارناط هذا شيخًا منجذًا بالحروب ذا بطش وشجاعة فائقة يهاب العرب سطوته.

وبعد هذا سار صلاح الدين الى قلعة طبرية ولاطف الملكة واقسم لها وانزلها وبعثها الى طرابلس مع ذويها وكلّ مالها واعطاها بعض عطايا . اما الرهبان الدواوية والاسبيتالية وكانوا ثمانين عدًا فقد اعتقلهم ثم قتلهم بيم. وقد باع الفرسان منهم كل فارس بخمسمائة دينار وقال : ن هؤلاء يفوقون الفرنج كافة في ايقاع الضرر بالعرب ويؤثرون القتل في سبيل ايمانهم فيجب الاجهاز عليهم.

ثم اقبل صلاح الدين الى عكة وانهزم الزعماء كافة في البحر الى صور وبقي الساكنين فطلبوا الأمان. وبعدما احتل عكة احتل كذلك حيفا ونابلس وهي السامرة وتبنين وصيدا وقيسارية ويافا وبيروت والناصرة . ويقصر اللسان عن وصف ما احتله النصارى القاطنون في اصقاع العرب يومئذ من الاستهزاء والازدراء . اما صاحب جبيل وكان معتقلًا فقد سلمهم المدينة ونجا .

وسار صلاح الدين الى عسقلان وهي حافلة برجال الحرب وحاصرها حصارًا

---

١) هم رهبان جنود محافظون اصقاع المسيحيّين . واسمهم فرير اعني اخوة ويقال لهم دراويّة وهيكليّون واسبتاليّون اعني مضيفين وقد صنعوا خيرًا عظيمًا بضيافتهم .

٢) قد قُتل ارناط لانه أبى ان يجاهر بالاسلام .

شديداً ولم يقوَ على أخذها فاستدعى صاحب طبرية (ملك اورشليم) وكان معتقلاً عنده وقال له : ان سلّمتني عسقلان اطلقت سبيلك . فارسل واستدعى اليه حاكمها وامره ان يسلمها (٣٧٥) فأبى. فقال ذلك للعرب الذين يحرسونه اوثقوه واوثقوا من معه وبعد هذا ارسل الى اهالي المدينة ليسلموها وينجوا. فاخضعوا له وسلّموها .

وعوّل اهالي صور كذلك على التسليم غير ان القنص (كونراد) شخص اليها وتولى حراستها جيّداً .

وزحف صلاح الدين من هناك الى اورشليم وحاصرها ونصب منجنيقات ضخمة على سورها في الناحية الشمالية لاقساعها وموافقتها لاقامة المحاربين وظلّ ثلاثة ايام كذلك . ثم اشتدّ الفرنج وهم ستون الفاً من فرسان ورجالة وخرجوا الى قتال العرب وفتكوا بكثير منهم في جملتهم عزّ الدين عيسى صاحب قلعة جعبر وغيره من المشاهير . واذ ذاك اخذ العرب يستعملون قذف السهام ليلهوا الواقفين في السور حتى تثبّث به الحلبيون العمّلة واقتلعوا حالاً الحجار ونقبوا ثقباً أسندوها بالاخشاب حتى اذا لعبت بها النيران يسقط السور.

ولما قنط الفرنج وآيسوا ارسلوا اثنين من العقلاء الى صلاح الدين يطلبون الامان . لكنه ابى وقال لن افتح المدينة الّا بالسيف وسأفعل بكم كما فعلتم انتم بالعرب حين ملكتموها اذ قتلتم وسبيتم . فقال له احد ذينك الزعيمين ان لي كلمةً اخرى اقولها لك ان وعدتني بانك لن تحنث . قال له صلاح الدين : لست احنث قل ما بدا لك . فقال : لو لم نعرف فطنتك وانك لا تقدر ان تخالف شريعة من سبقك من الملوك الاقدمين اذا انكسر اعداؤهم والقوا سلاحهم وطلبوا الامان لما اقبلنا اليك . والآن فقد اتينا (٣٧٦) ولم يبقَ لنا امل في كرمك فاعلم اننا عائدان الى المدينة لنبلّغ رجالنا الابطال المجاهدين. وسنفتك اول بدء بالعرب الاسرى الذين عندنا . ثم نحرق مسجدكم الكبير ثم الكنائس وسائر الابنية ثم الاموال والامتعة ثم نذبح بيدنا نساءنا وابناءنا وبناتنا ولن ندعكم تتكتلون فيهم شهوتكم. وبعد هذا كله فالواحد منا لن يسلم ذاته للقتل الّا بعد ان يقتل واحداً او اثنين منكم.

أدهش صلاح الدين هذا الخطاب وقال للزعيمين ان يقيما في احدى الخيام

ريثما يشاور زعماءه . فقالوا له : ان كلّ ما قاله هـذان صحيح وان الفرنج يصنعون اكثر من ذلك . فالاجدر ان نصالحها . فاستدعى صلاح الدين ذينك الزعيمين الفرنجيين وقال لهما : اني قابـلٌ بما طلبتما غير انه لا يمكن ان يخرج الاهالي كلّهم مجاناً وأمراني يطلبون ذهباً لانهم تعبوا وخسروا في الحرب خسائر وافرة . واستقرّ الرأي ان يدفع كلّ رجـل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكلّ ابن وبنت دينارين ويخرج الجميع في كلّ ما يمكنهم حمله . فوافق الفرنج على ذلك . ووزنوا ثلاثين الف دينـار عن الفقراء والمساكين وادّى الاغنياء عنهم وعن غيرهم من الفقراء . وخرجوا جميعاً بالامان . وبقي خمسة آلاف ممن لم يمكنهم ان يدفعوا شيئاً فاستاقهم العرب أسرى . وقـد اركسَ بعض الحراس العرب من كثير من المسيحيين ديناراً ديناراً او اكثر وسرّحوهم . امـا مظفّر الدين بن زين الدين فقـد اطلق نحو الف شخص من السريان والارمن مجاناً وهو يقول ان هولاء هم رهاوّيون من ابناء رعيتي . ونهج نهجه ابن شهاب الدين صاحب البيرة فاطلق الكثيرين من ابناء بلده .

وكان في اورشليم يومئذٍ ملكة يونانيّة متوشّحة بثوب الرهبانية منقطعة في احد الاديار فارسلت الى صلاح الدين تلتمس منه ان لا يتعدّى عليها احد . فامر ان تخرج هي (٣٧٧) والشمامسة والشمامسات والخدّام وتنقـل معها كل اموالها . وارسل معها بعض الفرسان اوصلوها الى حدود الفرنج . وصنع مثل ذلك لسائر الملكات الفرنجيات اللواتي كنّ في اورشليم . ونقل البطريرك جميع امتعة كنيسة القيامة وسائر الكنائس وقناديل الذهب والفضة وارتحل . وباع الاهالي ما لم يتيسّر لهم نقله . وبالجملة فقد سلّموا المدينة فارغة من الذخيرة . على ان العماد الكاتب قال لصلاح الدين : علامَ ينقل هولاء كلّ هذه الاموال وانت لم تقرّر لهم الّا الامان ؟ فقال له : صدقتَ ولكنّ الفرنج لا يفهمون ذلك واذا منعناهم عن اخذ اموالهم اذاعوا عنا اننا اقسنا وحنثنا باقـامنـا وألحقوا بنا ذكرى سيئة . هكذا احتلّ صلاح الدين اورشليم يوم الجمعة ٢٧ رجب عام ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ م) و ١٢ تشرين الاول ١٤٩٨ لليونان . وتمّ ذلك بعد مضيّ ٢٨ يوماً من اجتماع الكواكب السيّارة الستة .

ولم يملك المسيحيون اورشليم بعد هذا التاريخ . غير ان صلاح الدين اقام

اربعة رهبان من الفرنج في كنيسة القيامة لينهضوا بخدمة القبر المقدّس . وبعد زمن قليل تولى بطريرك اليونان ادارة تلك الكنيسة .

ولما فرغ صلاح الدين من امر اورشليم سار الى صور وهي في قلب البحر وابتنى ابراجاً متينة وافرغ كل قوّته في محاربتها وهو يحرّض عساكره ويقول لهم : لم يبقَ للفرنج في ساحل البحر مكان يقيمون فيه الا صور فاذا انتزعناها منهم كفّوا عن الزحف ونجونا منهم . وبمثل هذه العبارات دفعهم الى القتال حتى النهاية . غير ان المركيز الذي اقبل من رومية حصّن المدينة بالخنادق وبرجالٍ اشدّاء ملاحين وجعلوا يخرجون ويفتكون بالعرب ويعودون (٣٧٨) وعند ذلك ارسل صلاح الدين الى الاسكندرية واستقدم الف سفينة ضخمة أرست تجاه المرفأ . وخرج ليلةً ملّاحو الفرنج في سفنٍ محكمة وحطّموا اغلبها واعتقلوا ملّاحين شهيرين من بلاد المغرب والقى البقية انفسهم في البحر وهلكوا وانهزم بعضهم في سفنهم الى بيروت فادركهم الفرنج واعتقلوا اغلبهم وغرق الباقون .

ولما شاهد صلاح الدين تلك الاهوال وشجاعة الفرنج في البحر قطع الامل هو واصحابه واحرقوا ما ابقوا من الابراج والمنجنيقات والبقية الباقية من السفن واقلعوا من صور وتوجهوا الى عكة . ثمّ امر صلاح الدين جنوده ان يذهب كل منهم الى وطنه ويستريح في بيته .

وفي تلك الاثناء وقع خلاف بين الخليفة الناصر وبين صلاح الدين لان هذا اغمض عن ارسال جزية سورية اليه . ولم يرسل اليه كذلك شيئاً مما كان يجبيه من مصر . وطالما صرّح صلاح الدين في نشوته بانه مستعدّ ان يلغي الخطبة للخليفة ويجدّدها للفاطميين بمصر . وقد امتعض الخليفة اي امتعاض عندما نقل اليه رجلٌ حقير بغداديّ كان سابقاً في خدمة صلاح الدين البشرى باحتلاله اورشليم .

وفي تلك السنة حشد رجلٌ تركمانيّ من الرعاة يقال له رستم خمسة آلاف فارس وجمهوراً غفيراً من الرجّالة وسار الى قيليقية ليسبي وينهب . وما ان شعر لاون صاحبها حتى سدّ الثغور في ناحية مرعش واجهز على اولئك التركمان . ثمّ احتشد خمسة آلاف رجل منهم في اطراف حلب (٣٧٩) ليغزوها فبرز اليهم البرنس بوهيمند وسحقهم جميعاً .

وفي السنة ٥٨٤ للعرب (١١٨٨ م) زحف صلاح الدين بذاته الى حصن الاكراد وحاصره يوماً واحداً فامتنع عليه . فانقلب الى انطرطس وقبل ان ينتهوا من نصب الخيام كلها احتل الحلبيون اسوار المدينة وتحصن الفرنج في برجين من ابراجها واخيراً سلموا . فقوض صلاح الدين سورها وقلعتها وكنيستها الشهيرة المعروفة بكنيسة مريم والدة الله وسائر ابنيتها وانطلق الى قلعة المرقب فلم يرَ احداً من السكان فيها . وانتهى الى جبلة فسلمه اياها مَن فيها من العرب . ثم زحف الى اللاذقية ونازلها بشدة وحفر الحلبيون خندقاً تحت الارض طوله ستون ذراعاً وعرضه اربع اذرع . فخاف الفرنج وطلبوا الامان. فرخص لهم صلاح الدين ان يخرجوا في اولادهم ونسائهم واموالهم سوى البهائم والقمح وآلات الحرب . واستعمل عليها ابن اخيه تقي الدين صاحب حماة

واقبل في تلك الايام جيوش من الفرنج في سفن كثيرة من صقلية ليساعدوا المسيحيين . وانطلق قائدهم ليحادث صلاح الدين وقال له : لقد استوليت على كل ما كان للفرنج في سواحل البحر ولم تترك لهم سوى القليل الحقير . فينبغي ان تكفّ عن قتالهم لئلا يتدفقوا قادمين من البحر ويسببوا لك عناء جسيماً . فلاجدر بك ان تحسن معاملة جيرانك هولاء لانهم بثابة حصن حصين بينك وبين الاهالي . فقال صلاح الدين : ان شريعتنا تضطرنا ان نعزّ ديننا . والربّ يصنع ما يشاء . فعاد ذلك القائد الى بلده ثم زحف صلاح الدين الى صيون وهي على صخر (٣٨٠) ما بين واديين عميقين وحاصرها واحتلها بالامان واستعمل عليها ناصر الدين منغوراس بن كمرتكين مملوك مجاهد الدين بن بوزان . واحتل كذلك ثغر بكاس وزحف الى دربساغ ونازلها واحتلها . وانتهى الى بغراس وهي خالية من الجيش الكافي وانتزعها من الاخوة الدواوية . واصبحت تلك البلاد جميعاً للعرب . فخاف الانطاكيون خوفاً شديداً ولاسيما لان الطرق سُدّت تجاههم ونقصهم الزاد . بناء عليه ارسل البرنس الى صلاح الدين يتذلل ويطلب الامان فلبى طلبه لمدة ثمانية اشهر وتركه وانصرف الى حلب ثم الى دمشق واستراح هنيهة . ثم زحف الى صفد وحاصرها حصاراً شديداً حتى انتزعها من اصحابها وانتزع معها بلدة كوكبة بعد ما ضايقها جداً .

وفي هذه السنة مات الموفق اسعد الطبيب الدمشقي المشهور بابن المطران الذي هجر النصرانية وأسلم حباً للدنيا الزائلة . واقتنى اموالاً وافرة وزف اليه صلاح الدين احدى جواريه وما عتم ان مات واضمحل ذكره . على اثر موت صلاح الدين شوهدت امرأته مع فتى عزيز عليه يطوفان بيوت الضباط ويستعطيان .

وفي السنة ٥٨٥ للعرب (١١٨٩ م) خرج بوهيمند البرنس من انطاكية وغزا بلد حارم ووصل الى شيح وفتك بالعرب والمسيحيين معاً .

اما ارناط صاحب صيدا وكان على اثر انتزاعها من يده قد سار الى شقيف ارنون برخصة من صلاح الدين فقد شخص اليه واستمهله ثلاثة اشهر ليرحل اهله عن صور ويقيم في مكان يكفيه ببلد دمشق ثم يسلّمه الشقيف المذكور . وقد أذن له في ذلك ثم أحسّ انه يخادعه ويواصل حفر الخندق وبناء السور . ومن ثم خرج صلاح الدين يوماً كعادته (٣٨١) واستأسر ارناط ووجّهه الى دمشق ولم يطلقه الا بعد ما سلّمه الشقيف .

وفي سنة ١٥٠٠ لليونان (١١٨٩ م) حدث نزاع بين السلطان قلج ارسلان وبين ابنه الكبير المقيم في سبسطية . وقد قُتل نحو اربعة آلاف من الاتراك الذين مع الولد . وبعد هذا اصطلحا على يد الامير بيرشاه صهر السلطان . ثم ان السلطان رحل عنه اختيار الدين الحسن الامير حاجبه لانه كان السبب في القاء الفتنة بينه وبين اولاده وعند ذاك حشد اختيار الدين زهاء مائتي فارس من اولاده وانسبائه واقاربه وقصد مرج كنيوك فوجّه ابن السلطان بعض التركمان حملوا عليه وفتكوا به وبينيه وبن معه . ثم قطّعوه ارباً ارباً وعلّقوه في رؤوس الرماح وطافوا به في سبسطية يوم عيد الصليب .

وفي تلك السنة تولى ملطية معزّ الدين قيصر شاه ابن السلطان قلج ارسلان .

وفيها كذلك اقبل الى صور جماهير مختلفة من الفرنج يفوق عددهم حدّ الكثرة وزحفوا من هناك الى عكة . فسمع صلاح الدين ودبّ الرعب في قلبه وارسل فاستدعى جميع جيوشه وزحف وحطّ رحاله بالقرب من الفرنج . وشاهدهم يزدادون يوماً فيوماً ويأتيهم القوت من البحر فحار في امره واجتمع بزعمائه وشاورهم فقرّروا ان يسارعوا في المبارزة قبل ان يزداد عدد الفرنج

اكثر فاكثر . وتأهبوا ليلة الجمعة اوّل رجب ولما كان الصباح التحم القتال واستغرق النهار كله حتى غروب الشمس ورسخ الجانبان رسوخاً تمّا وبات الجميع ليلتهم على ظهور خيلهم . واشتملت نيران المعركة يوم السبت كذلك حتى المساء . ولما كان الفرنج يواصلون القتال وقد أخلوا جهة عكّة الشماليّة حيث لم يكن لهم خيام اغتنم صلاح الدين الفرصة ودخلها (٣٨٢) في كثير من الرجّالة والمؤن والذخائر وأخرج منها الضعفاء . ثمّ خرج هو كذلك وأمر الداخلين ان لا يكتفوا بمحاربة السور فقط بل يقاتلوا الفرنج على المدى لعلّهم يضعفون اذا شاهدوا الداخلين والخارجين يشدّدون عليهم . امّا الفرنج فلكثرتهم لم يَدَعوا العرب يخرقون جيوشهم بل واصلوا غاراتهم . ولولا ذلك لاحتلوا المدينة سريعاً .

ثم ركب الفرنج يوم الاثنين أحصنتهم ودنوا من خيام العرب دون ان يدَعوا احداً من رجّالتهم يرافقهم . ووضعوا السيف في الكثيرين من العرب ورجعوا . فتتبعهم العرب الى تلّ المصلوبين حيث كانوا متحصّنين . ولمّا شاهد صلاح الدين قوّتهم في ذلك التلّ سار الى تلّ آخر تجاهه يشرف على عكّة . وكان العرب الرجّالة يخرجون كلّ يوم ويبارزون الرجّالة الفرنج . قيل ان الفرنج خاطبوا يوماً العرب الداخلين قائلين : لقد سئمنا الحرب نحن وانتم واكتفينا . فاليوم نروم ان ننشرح ببارزة الفتيان الصغار . ثم هيّأوا مائة فتى فرنجيّ ومائة فتى عربيّ جعلوا يتبارزون بقذف الحجار ثم بالعصيّ والرماح واخيراً هَزَم الفتيانُ الفرنج الفتيانَ العرب وحشروهم في المدينة .

ويوم الاربعاء ٢٠ رجب كانت الملحمة العظيمة اذ برز الفرنج من خيامهم كالجراد وبرز الملك كذلك وامامه كتاب الانجيل محمّلاً بقماش حرير احمر يحمله الكهنة فوق رؤوسهم . فهلع صلاح الدين وأوقع صيحة هائلة في جنوده وخوّفهم (٣٨٣) وأذعرهم . وبعد هذا وثب الفرنج من الناحية اليسرى الى العرب في الناحية اليمنى حيثُ كان تقيّ الدين عمر ابن اخي صلاح الدين وقد جاهد جيّداً تجاه الفرنج . ولمّا شاهد ملك الفرنج ان العرب لم يتزعزعوا تشدّد بروحه وصنع اشارة الصليب على وجهه وخرق قلب الجيوش العربيّة حيث كان الافضل والظافر ولدا صلاح الدين وقطب الدين بن نور الدين بن قرا ارسلان

صاحب حصن كيفا وابن لاخين صاحب نابلس وغيرهم كثيرون. وما ان اشتبك احدهم بالآخر حتى اخذ الفرنج يحصدون العرب حصاد القمح بالمناجل ولاذ العرب بالهزيمة وتتبعهم الفرنج في سيوفهم وهم يهتفون بأبواقهم هتافاً شديداً. وانكسر العرب كسرة هائلة. وقصد الفرنج معسكرهم ونهبوا خيامهم وفتكوا بكل السوقة . ووصل المنهزمون الى دمشق وطبرية .

امّا الفرنج فبعد ما طاردوا العرب نحو فرسخ عادوا فرأوا الباقين مطمئنين في الناحية الشمالية لا يتزحزحون. وبما انهم أعيوا لم يَرَوا ان يتحرّشوا بهم بل قصدوا خيامهم ليستريحوا . غير ان صلاح الدين جعل يصيح وينادي ويشجّع المنهزمين حتى عادوا الى خيامهم كالامرات . وأُحصي عدد القتلى فكان اربعة آلاف ومائة . على ان صلاح الدين أمر العرب الذين في عكّة ان يلقوا الجثث في البحر فقام احدهم وبيده خيط وجعل كلّما القوا واحداً عقد عقدة . وسقط من الفرنج نحو الفين . حينئذٍ اشار الزعماء على صلاح الدين ان يرحلوا ويبتعدوا قليلاً عن الفرنج يتملّاون بحدوث فساد في المناخ من جرى نتونة اجسام القتلى. فارتحلوا الى مكان بعيد واشتغل الفرنج بحفر خندق كبير من التلّ حتى البحر بينهم وبين الجيش العربيّ الخارجيّ ثم احدقوا بعكّة من جهة البحر وسدّوا الطريق في وجه العرب وتعذّر الدخول الى المدينة والخروج منها .

(٣٨٠) وبلغ صلاح الدين ان ملك الالمان[1] قادم بطريق قسطنطينية في مائتي الف فارس وراجل فتأثر اشدّ التأثر وارسل بهاء الدين بن شداد سفيراً الى خليفة بغداد والى سائر ملوك المشرق يستنفرهم ويستعجلهم ليساعدوه والّا فالعربيّة تضمحلّ لا محالة .

ولمّا دخلت السنة ٥٨٦ للعرب (١١٩٠ م) اطمأنّ صلاح الدين بسبب انتزاحه عن معسكر الفرنج الذين وجّهوا افكارهم كلّها نحو عكّة . غير ان الفرنج باغتوا معسكر العرب وكان صلاح الدين يتصيّد فأوقع اخوه العادل صيحةً في الجنود فركبوا وناوشوا الفرنج وسقط قتلى كثيرون من كلتا الجهتين ولو لم يدركهم الليل لأصبح الانكسار تاماً . وانتقل الفرنج الى معسكرهم وهبطت الامطار وحصلت الأوحال بين الفريقين وتعذّر على ايّ كان ركوب

١) فردريك الاوّل ملك النمسة .

الخيل ومناوشة احدهم للآخر. وانقطعت الاخبار بين صلاح الدين وبين الذين في عكّة . وقد سبح احدهم في البحر ووصل اليه واخبره ان الفرنج يحاربون المدينة حرباً عواناً وقد ابتنوا ابراجاً شاهقة تُطل عليها وأمسى مَن في داخلها في ضيق شديد .

فركب صلاح الدين وتوجّه نحو الفرنج ليلهيهم هنيهة عمّن هم ضمن المدينة وصادف هناك خنادق عميقة قد حفروها حولهم واصبح البلوغ اليهم مستحيلاً . فعضّ اصابعه ندماً وانقلب وحلّ في تلّ العجول بعيداً جداً عن الفرنج. وأقبل اليه ملوك العرب كافّةً . نذكر منهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ومعزّ الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازي بن مودود صاحب الجزيرة وعلاء الدين كم شاه بن مسعود صاحب الموصل ومظفّر الدين بن (٣٨٥) زين الدين علي كجك صاحب اربيل . ثم ادخل صلاح الدين الى عكّة صناعاً محتكين باضرام النيران وأحرقوا ثلاثة ابراج كبيرة للفرنج . غير انه تعالى اغاث الفرنج بريح شديدة هبّت نحو المدينة ولولاها لاحترقوا جميعاً في لهيب تلك الابراج الهائل . زد عليه ان الخندق الذي حفروه ثبّطهم عن الفرار من تلك النيران المتأججة. اما الابراج المذكورة فكانوا قد أسّسوها على عجلات يدفعونها متى أرادوا بأرماحهم ويلصقونها بالسور والمحاربون ضمنها. واذا أرادوا اجتذبوها اليهم بالحبال التي عندهم . ذلك عمل غريب يُذهل مَن يشاهده ويُرعبه .

اما ملك الالمان فلم يَدَعه اليونان ان يغادر قسطنطينية لكنه عاندهم وتغلّب عليهم ففتحوا له الطريق ووصل الى بلاد قلج ارسلان فحشد قطب الدين ملكشاه ابن السلطان جيوش التركمان وناوش الالمان فانكسر وولّى هارباً في جيوشه . ووصل الالمان الى قونية وفتكوا بكثيرين من اهاليها . وفي تلك الاثناء توجّه بياس ميخائيل القسيس اليوناني والكاتب الملطي الى قونية ليدفع الخراج فاجهز عليه التركمان وقتلوه . وظلّ قلج ارسلان متحصناً في قلعة قونية ثم ادّى مبالغ لملك الالمان وعقد معه الصلح وفتح له الطريق فاقبل الى قيليقية وانطلق اليه لاون بن اسطفان بن لاون صاحب قيليقية وزاره في طرسوس واعرب له عن خضوعه وطاعته . ثم توجّه ملك الالمان وهو شيخ ليسبح في النهر وكان

البرد شديدًا يومئذٍ فوعك ومات[1] هناك ونقل ابنه رفاته الى انطاكية . ثم توجّه سائر الالمان الى اطراف طرابلس وقد خارت قواهم وركبوا البحر الى عكّة غير ان اغلبهم قضوا مرضى في قيليقية ولم يبق منهم الّا النزر القليل.

(٣٨٦) واقبل في تلك الغضون ملك انكلترا[2] ونزل في قبرس وانتزعها من اليونان واستأنف المسير الى عكّة فاشتدّ ساعد الفرنج بقدومه . وكان في تلك المدينة عشرة امراء عرب فارسلوا يقولون لصلاح الدين : ان المعارك المتواصلة قد أوهنت قوانا وأضعفتنا ودبّ المرض فينا. فكان جوابه ان يغادروا المدينة بحرًا . وأرسل من نابَ منابهم ممّن لم يكونوا منجذبين في القتال على السور. بناء عليه تعزّز الفرنج وأقاموا سبعة منجنيقات وجّهوها نحو برجٍ واحد. واوفد ملك انكلترا سفيرًا الى صلاح الدين يقول : لا بأس ان نختلي انا وانت في مكانٍ ما وندبّر تدبيرًا يفيد الطرفين . فأجاب صلاح الدين : ينبغي اوّلًا ان ندبّر امر الصلح وبعد هذا نجتمع معًا . لانه لا يجمل بنا ان نعود الى القتال بعد المحادثة والمنادمة . واتّفق ان ملك الانكليز وعك يومئذٍ واشتدّ مرضه ممّا أخّر الفرنج عن متابعة الحرب . ولمّا تعافى ارسل تكرارًا سفيرًا الى صلاح الدين يقول : لا تلمني بسبب سكوتي لان المرض اعاقني عن مراسلتك. والآن فقد تعافيتُ وأرسلتُ استأذنك في ان اوجّه اليك بعض الهدايا اذ لا يجدر بالملوك ان يقطعوا حبل المواصلة والمبادلة بالهدايا والسفراء والمبارات الحبيّة حتى في اثناء الحرب . هذا ما تلقّنا اياه شرائع آبائنا الملوك الاقدمين . فقال صلاح الدين : ان بادلتمونا بالهدايا بادلناكم بمثلها. قال السفير: ان عندنا بواشق ونسورًا وطيورًا وحمامَ زاجلٍ قد ادركها الضعف فأعطونا دجاجًا وزغاليل تقتات بها وتنتعش ثم نحضرها اليكم . تبسّم العادل اخو صلاح الدين وقال (٣٨٧) للسفير ممازحًا: بما ان ملك انكلترا قد ابلّ من وعكته فلا ريب انه يحتاج الى زغاليل بتعرّضه لذكر البواشق .

وبعد هذا وشّح صلاح الدين السفير الانكليزيّ بحلّة ملكيّة وسيّر معه طائفة من الدجاج والزغاليل والحمام . وما مرّت ثلاثة ايّام حتى عاد السفراء.

١) ذكر مؤرخو الفرنج ان هذا الملك غرق في النهر في حزيران ١١٩٠

٢) هو الملك رشرد الذي بسبب بسالته أطلق عليه لقب « قلب الأسد ».

الفرنج الى صلاح الدين وطلبوا منه ثاراً وثلجاً فأعطاهم وعادوا. قيل ان ملك الانكليز لم يتوخَّ في ارسال الزفود مرّةً بعد مرّة اخباراً فارغةً لكنه كان يريد ان يقف حقيقةً على ما عند صلاح الدين والملوك الذين معه من الجيوش.

ولمّا اشتدّ الحصار على العرب ضمن عكّة بعثوا الى صلاح الدين قائلين: أرسل الينا مَن ينجدنا والّا فاننا نسلّم المدينة. وكان صلاح الدين لا يهمّه الّا ان يُشغل الفرنج في القتال. ولذا قسم الفرنج جيوشهم قسمين فوّضوا الى الاوّل مبارزة العرب خارجاً والثاني مبارزتهم داخلاً. ولمّا استيقن الذين ضمن البلد بالانكسار سألوا الامان. فقال لهم الفرنج: لن نلبّي طلبكم الّا اذا ردّ لنا صلاح الدين جميع الاسرى الفرنج وجميع المدن التي انتزعها منّا. فراسلوه في ذلك فقال: اني أُطلق ثلاثة آلاف اسير فقط بدلاً من العرب الذين في عكّة. واذا تركوا لنا عكّة بادلتُهم مدينة عوض مدينة. والّا فليأخذوا تلك المدن بالسيف كما سبقتُ فاخذتُها.

ولمّا بلغ الفرنج ذلك تعرّشوا حالاً بالسلّم الى الاسوار وانحدروا الى المدينة. وبطشوا بالكثيرين. ثم حشدوا بقيّة الاهالي في ناحية فقال لهم هؤلاء: اعفوا عنّا وربّما نرأسل صلاح الدين لينقذنا بالذهب وبمن تطلبون من الاسرى الفرنج. فوافق الفرنج على ذلك واعطوهم مهلة اربعة عشر يوماً حتى يبدو القمر الجديد. وقالوا: اذا دفع لنا صلاح الدين مائتي الف دينار ذهباً ومائة اسير متن (٣٨٨) نكتب اسماءهم من القلعة والكونتيّة وغيرهم مع الف وخمسمائة اسير نجهل اسماءهم فعند ذلك نعتقكم. فارسل اولئك العرب الى صلاح الدين واخبروه بالامر فاجتمع بزعمائه وشاورهم فقالوا بفم واحد: ان هؤلاء العرب هم اخوتنا فيجب ان ننقذهم. فامتثل المشورة وكتب الى البلاد فجمعوا الاسرى الفرنج. اما بشأن الذهب فقرّر ان يؤدّي ثلثه في كلّ عشرة ايام. وعند انتهاء الايام العشرة ارسل الى الفرنج يقول: اطلقوا جميع مَن عندكم من العرب ثم ندفع لكم ثلث الذهب والرهائن بدلاً من الثلثين الباقيين. او ادفعوا لنا رهائن بدلاً من ثلث الذهب الذي تقبضون. فقال الفرنج: تكفيكم كلمتنا وتقريرنا بشأن الرهائن. فاستنظر صلاح الدين جوابهم ورفض طلبهم فسخطوا كلّ السخط واوثقوا جميع اولئك العرب بالحبال واستاقوهم الى تلّ بظاهر المدينة وكوّموا

حولهم حطباً كثيراً وحبالاً عتيقة وبراميل خمر وحشروهم واستلوا السيوف وبطشوا بهم قاطبة وكان كاتب الديوان واقفاً يشاهدهم . وبلغ عدد قتلى العرب على اسوار عكة وداخلها وخارجها في التل مائة الف وثمانمائة نسمة . وجرى ذلك في رجب ٥٨٧ للعرب وفي آب السنة ١٥٠٢ لليونان (١١٩١م). ولقد اسهبنا الكلام قليلاً في وصف هذا الحصار لما له من الشهرة لدى العرب وقد كتبوا مجلدات في ذكر ما نالهم من الضيق هذه المرة من الفرنج .

وبعد ما احتل الفرنج عكة اقاموا فيها جيشاً يحرسها وبنائين يرممون اسوارها وارتحلوا نحو ارسوف . وارتحل صلاح الدين كذلك وكان الفرنج والعرب يتحرشون بعضهم ببعض وهم سائرون في الطريق (٣٨٩) وقد ناوش العرب ذات يوم القتال الفرنج فاغتاظ ملك انكلترا وحمل عليهم بباس شديد وهزمهم وشتت شملهم ولم يبق مع صلاح الدين الا سبعة عشر من خيرة العرب ونافخي الابواق وحاملي الرايات . ولولا خوف الفرنج من كمين يترصدهم لقبضوا في ذلك اليوم على صلاح الدين ذاته وقوضوا دعامة العرب تقويضاً تاماً .

ووجه صلاح الدين يومئذٍ بنائين وفرساناً الى قلعة بغراس لينقلوا منها الذخيرة ويدكوها . ولما وصلوا وباشروا العمل بلغهم ان لاون صاحب قيليقية متأهب لينصب عليهم فتركوا القلعة ولاذوا بالفرار . وبلغ الانطاكيين خبر هزيمتهم فزحفوا الى تلك القلعة وشاهدوا فيها اثني عشر الف مكوك من الحنطة فنقلوا ذلك كله الى انطاكية وانفرجوا وكان الجوع يومئذٍ قد ضايقهم جداً . وما مر القليل حتى اقبل لاون وتغلب على الفرنج وانتزع منهم بغراس .

وارسل صلاح الدين فحارب عسقلان وافرغها من السكان . وكان الفرنج قد ابتنوا يافا وعمروها وهي واقعة بين اورشليم وعسقلان. ولهذا السبب ادعى العرب بانهم لا يستطيعون الى حراستها سبيلاً . وسار صلاح الدين الى اورشليم وأشرف عليها وحصنها بالرجال والعدة . وسار اليه يومئذٍ معز الدين صاحب ملطية يرفع الدعوى على ابيه السلطان قلج ارسلان وعلى اخوته اذ كانوا يحاولون انتزاع ملطية منه. وقد رحب به صلاح الدين وزف اليه ابنة اخيه الملك العادل واعاده الى ملطية وشجعه بقوله : لا تخف أباك ولا اخوتك .

وارسل ملك انكلترا سفيراً الى صلاح الدين يقول : لقد افنت الحرب

عسكرنا وعسكركم فإلى متى تبقى الحال كذلك ؟ قد ارتوت سيوفنا وسيوفكم من الدماء. فاردد ما اخذته منا من البلاد ولا سيما اورشليم مقام ديننا وقد غادرنا اوطاننا بسببها فاذا وافقتَ على ذلك تركنا كل شيء. وعدنا(٣٩٠) الى وطننا فنستريح منا . فاجاب صلاح الدين : ان هذه البلاد لم تكن لكم فيما مضى بل لليونان. وقد انتزعها العرب منهم في غاراتهم الاولى ولمّا استضعفتموهم اقبلتم فانتزعتموها منهم . والآن فقد استرجعنا بلادنا منكم . اما اورشليم التي قلتم انها مقام دينكم فهي مقام ديننا كذلك ونعتبرها اكثر منكم مثلما اوصانا الله في قرآنه .

ثم ارسل ملك انكلترا ثانيةً الى صلاح الدين يقول : أريد ان يصاهرني اخوك العادل فازفّ له شقيقتي التي قدمت معي لتسجد في اورشليم . فاذا وهبت المدن التي بساحل البحر لاخيك واكتفيت انت بالقلاع والمدن فقط وظلّت القرى باجمعها للاخوة الدراوية والاسبتاليّة فحين ذاك يتمّ عقد الزواج وانا استجعل اختي على جميع المدن الساحليّة التي بيد الفرنج ويكون مركزها في اورشليم . لكنّ صلاح الدين لم يرضَ بذلك امّا ابنه العدل فقد كلف بالابنة ووجه الزعماء والشيوخ الى اخيه ليقنعوه في ذلك . غير انه رفض كلّ الرفض فقال له ارتأتك الدهاةُ : نحن عالمون ان الزواج لن يكون قطعاً وان ابنة الملك الكبير لن ترضى الاقتران بعربيّ واخاه يعرف ذلك حقّ المعرفة . ولعلّه قال ذلك على سبيل المزاح كعادته . وبناء عليه فلا تكسر خاطر اخيك . اقتنع صلاح الدين وأرسل سفيرًا في القبول . واقام السفير لدى الملك ثلاثة ايّام ثم قال له في اليوم الثالث : قضيتُ هذه الايام الثلاثة احاول ليل نهار اقناع اختي فلم تقتنع الّا بشرط ان يتنصّر العادل. هكذا عاد السفير خائباً.

وفي تلك الايّام مات تقيّ الدين عمر ابن اخي صلاح الدين في طريق خلاط وهو ذاهب ليحاربها فحملوه وردّوه الى ميافرقين ودفنوه. وكان هذا يبغض (٣٩١)المسيحيّين البغض كلّه ويفتك دون شفقة بالارمن الفلاحين المظلومين ببلد جبل جور . وكان معه ابن الملك المنصور فتحصّن في ميافرقين وارسل يقول لصلاح الدين: ان نزعتَ منّي بلاد ابي تقيّ الدين انضممتُ الى بكتمار صاحب خلاط. فلم يرَ صلاح الدين الّا ان يغمض عنه مدّةً. وبعد ايّام قلائل استعمل

العادل على بلاد ابيه واستعمله هو على الرها وحرّان وسميساط .

ولما ارتحل الفرنج والعرب الى عسقلان اقام العرب بعد يوم كميناً للفرنج وهم خارجون من المعسكر ليجمعوا حطباً . وما ان اكتشف الفرنج الكمين حتى امتطى كلٌّ منهم حصانه ووثبوا اليه وفتكوا بثلاثة من زعماء صلاح الدين وقبض العرب على فارسين من الفرنج اعتياديين . ووجّه ملك انكلترا سفيراً الى العادل يعاتبه بشأن الكمين ويقول له : ارغب ان اشاهدك واحدّثك . ونصب الفرنج خيمةً كبيرةً خارج معسكرهم فاقبل العادل واقام اليوم كله لدى ملك انكلترا ثم ودّع احدهما الآخر عند الغروب. وقال الملك للعادل: ارغب ان اجالس اخاك السلطان كذلك في هذه الخيمة واشاهده واحادثه . لكن صلاح الدين لما اخبره اخوه بذلك رفض الطلب لسببين اولهما لخوفه وثانيهما لانه لم يرَ ذلك موافقاً وكتب اليه يقول : لا يجدر بالملوك ان يجتمعوا معاً الّا بعد عقد الصلح والحال ان ذلك لم يتمّ بعدُ . واذا افترضنا عقده فانا لستُ افهم لغته ولا هو يفهم لغتي . ولا بدّ من مترجم يترجم بيننا . فالأحرى اذاً ان نقيم السفير ترجماناً ونعدل عن المواجهة. ولما اقبل الشتاء سار ملك انكلترا الى عكة وصلاح الدين الى اورشليم وبعث اليه باربعة وعشرين الف دينار ذهب في اعتاق الاسرى العرب .

ولما دخلت السنة ٥٨٨ للعرب(١١٩٢م) زحف (٣٩٢) الفرنج الى عسقلان وجعلوا يرمّمون ابنيتها. وكان المركيز صاحب صور قد اختلف مع ملك انكلترا وحاول ان يستبدّ بها فاراد الملك ان ينتزعها من يده . فكتب المركيز الى صلاح الدين في الانضمام اليه ومبارزة الفرنج ابناء جنسه . ولما كان سفير المركيز لدى صلاح الدين وثب اليه رجلان اسمعيليان تزيّا بزيّ الرهبان وطعنه احدهما بالسكين . وانهزم الثاني الى كنيسة قريبة نقلوا اليها سفير المركيز كذلك فثار اليه الاسمعيليّ المذكور عندما سمعه يتكلّم واجهز عليه ضمن الكنيسة بطعنة ثانية . وقد قبض الفرنج على ذينك الاسمعيليين وتكلموا بهما فادّعيا ان ملك انكلترا هو الذي سيّرهما . فوثق الفرنج بقولهما بسبب الخلاف الذي حصل بين الملك والمركيز كما ذكرنا . غير ان الحقيقة انجلت اخيراً واتضح ان سيتان زعيم الاسمعيليين هو الذي ارسلهما ليفتكا به .

وبعد هذا استعمل ملك انكلترا على صور الكنت هنري فاقترن بامرأة المركيز وضاجعها وهي حامل خلافاً للناموس .

ثم تشدّد الفرنج وساروا الى داروم وانتزعوها من المسلمين عنوةً واجهزوا على كلّ اهلها . وفي تلك الغضون تعرّض الفرنج لقافلةٍ من المسلمين كبيرةٍ قادمة من مصر حاملة ذهباً لصلاح الدين. وبلغ صلاح الدين ان الفرنج متأهبون للزحف الى اورشليم فحشد جيوشه واستعدّ للمعركة . وحصّن اسوار المدينة وافسد جميع القنوات التي بظاهرها . عرف ملك انكلترا فشبّط الفرنج عن الزحف وقال لهم : (٣٩٣) ان ضواحي اورشليم خالية من المياه وقد افسد العرب المياه المجاورة لها والنهر بعيد عنها فرسخاً وكسورًا ولا يغلبنّ على ظنّكم ان اورشليم هي مثل عكة . صدّقوني لولا البحر لما تيسّر لنا ان نحاصرها اكثر من يومين . فوافق الجميع على مشورته وزحفوا نحو غزّة .

اما صلاح الدين فقد سُرّ بانتزاح الفرنج عن اورشليم ولكنه بات يتخوّف على مصر . واذ ذاك وجّه الملك سفيرًا اليه يقول : لا يتبادرنّ الى ظنك اني اغمضتُ خوفاً او ضعفاً . كلّا . فان الكبش لا يعود القهقرى الّا ليضرب الراس. فان رأيتَ ان تعقد الهدنة على ما نطلب فذلك ازكى لك وقد سبقتُ فاخبرتُك . وبعد مراسلات شتّى عُقدت الهدنة على ان تبقى بلاد الفرنج للفرنج اعني يافا وضواحيها وقيسارية وارسوف وحيفا وعكة وانطاكية وطرابلس . وتبقى سائر البلاد للعرب وتبقى عسقلان خراباً. ودفع صلاح الدين للفرنج جميع ما انفقوه على ترميمها . وفُتحت الطرق واقبل جمهور من الفرنج وزاروا اورشليم وبالغ صلاح الدين في اكرامهم وبذل لهم العطايا واعطاهم خيلاً لركوبهم. قيل ان ملك انكترا ارسل الى صلاح الدين يقول : كل فرنجيّ خالٍ من علامتي لا تدعه يدخل اورشليم . فاجتمع صلاح الدين بالعقلاء واستفسرهم عن تلك العلامة . وبعد التروّي قالوا له : ان اقوى داعٍ يحمل الفرنج على حجّ اورشليم انّما هو العبادة لا غير فاذا حجّوا وعادوا الى اوطانهم فلا تبقى لهم رغبة في العودة. ولهذا فالملك يحرّج عليهم الحجّ حتى اذا عاد هو ثانية واراد ان يأتوا معه لزمهم ان يكونوا مستعدّين. ولمّا فهم صلاح الدين السبب ارسل يقول للملك : ان هولاء الناس هم غرباء يتعذّر عليّ ان ازعجهم اما انت ففي وسعك ان تنهاهم .

وبعد ما احتلّ الفرنج عكةاعتقلوا زعيمين عربيّين (٣٩٤)وهما ابن المشطوب وقرقوش الحاجب وهذا كان رومي الاصل وارسله صلاح الدين الى افريقيـة وفتح مدناً كثيرة وعاد الى مصر وابتنى سوراً عُرف باسمه حتى اليوم . ثم أحيلت اليه قيادة الجيش في عكة . ولمّا قرّر الفرنج ان يدفع لهم ثمانية آلاف دينار ديةً قال لهم : بكَم اعتقتم ابن المشطوب ؟ قالوا بثلاثين الف دينار . قال لهم : اني أودّي مثله اذ ليس من الصواب ان يؤدّي هو ثلاثين الفاً وانا ثمانية آلاف . فقهقه الفرنج وقبضوا منه كذلك ثلاثين الفاً . ولقرقوش هذا حكايات مثل هذه منها ان شاعراً نظم فيه كتاباً كاملاً لم يبرزه الّا بعد موته.

وبعدما عُقد الصلح سار صلاح الدين الى بيروت واقبل اليه البرنس بوهيمند صاحب انطاكية فبالغ في اكرامه ووشحه بجلل ملكية ووشح كذلك الزعماء الاربعة عشر الذين معه واعطاه نصف ربع بلد انطاكية الذي احتلّه العرب . ولقد دهش صلاح الدين من قدوم البرنس اليه بثقة وطمأنينة ولذا اكرمه اكراماً جزيلاً وودّعه بسلام . ومن بيروت توجه صلاح الدين الى دمشق .

امّا ملك انكلترا فقد استعمل على عكة القنص هنري ابن اخته وانجر الى وطنه . ويقال انه توفي قبل الوصول اليه[1] .

وفي سابع آب ٣-١٥ لليونان(١١٩٢م)مات السلطان قلج ارسلان في قونية . وكان ذا هيبة وصولة وذكاء وانتزع عدة مواضع من اليونان . لكنه عندما بلغ الشيخوخة وزّع بلاده على اولاده وامسى بينهم نظير عاجز وكان اذا قام مدة عند احدهم لاجل غدائه انهزم الى ابن اخر . وعندما سار الى غياث الدين كيكسرو صاحب مدينة بروغلو رحب به كل الترحيب (٣٩٥) ونهض بخدمته اجمل نهوض . وحشد الجنود واستصحب اباه الشيخ وقصد قونية وانتزعها من قطب الدين اخيه . ثم زحفا الى اقسرة وهناك وافاه قلج ارسلان فنقله ابنه كيكسرو الى قونية وفيها توفي ودُفن وتولاها هو حتى انتزعها اخوه ركن الدين وسنذكر ذلك ان شاء الله تعالى . واستغرق ملك قلج ارسلان بن مسعود ابن قلج ارسلان بن سليمان بن قتلميش بن ييغو بن سلجوق بن توقاق ثماني وثلاثين سنة . وخلّف اثني عشر ملكاً .

١) وصل الى وطنه وتوفي عام ١١٩٩م .

وفي تلك الفضون انتابت صلاح الدين حمّى شديدة ومات في دمشق ليلة الاربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩ للعرب[1] وخلّف سبعة عشر ابناً وابنة صغيرة. ولم يكن في خزانته حين موته الا دينار واحد وستة وثلاثون فلساً لانه كان كريماً جواداً وهذا ما جعله ان ينجح في شؤونه. قيل انه لمّا مالك دمشق اخرج كل ما كان في الخزانة من دنانير ودراهم وكوّمها امامه وهي كمية وافرة وامر ابن المقدم ان يوزع حفنة حفنة على كل من الزعماء والفرسان والعبيد . ولما اخذ الحفنة زجره صلاح الدين قائلاً : املأ حفنتك . فضحك ابن المقدم . فسأله عن سبب ضحكه فقال : اني اذكر ان نور الدين كان يوماً جالساً بمكانك واحضروا اليه علبة مملوءة من الزبيب الجيد الكبير وقال لي : وزع بحفنتك على الزعماء . ولمّا اخذت املأ حفنتي قال لي بهدوء : ان وزعت هكذا فلن يكفي جميعهم . فضحك صلاح الدين وقال له : ان البخل انما يوافق التجار لا الملوك . اذا (٩٣٦) لا توزع منذ الان بيدٍ واحدة بل بيديك كليهما . وذكر احد الحضور ان الحفنة التي اصابها كانت مائة وثمانية وخمسين ديناراً . وقيل ايضاً : ان صلاح الدين لما كان يحاصر عكّة وركب يوماً مع قاضي العسكر سمع رجلاً يهودياً ينادي ويقول : اني اتظلّم الى الشرع العربي . فسأله العبيد من هو خصمك ؟ ومن الذي أكل حقك ؟ قال : ان خصمي هو السلطان وعبيده تعدّوا علي . فلم يسخط صلاح الدين بل نزل للحال عن حصانه ونزل معه القاضي كذلك واستدعى اليهودي واقامه الى جانبه . فقال اليهودي : انا رجل يهودي تاجر دمشقي انحدرت من الاسكندرية في عشرين حملاً سكراً وما كدت ابلغ مرفأ عكّة حتى انتهبني عبيدك وقالوا لي : انك كافر وما انك هو للسلطان . فامر صلاح الدين باحضار الذين اخذوا السكر فصرحوا بانهم نقلوه الى الخزانة . فأمر الخزنة فأدوا لليهودي ثمن السكر .

ولما كان صلاح الدين جالساً يوماً مع الزعماء اخذ العبيد الصغار يلعبون معاً وقذف احدهم حذاء على صاحبه وسقط الحذاء عند ركبة صلاح الدين فالتفت الى الناحية الاخرى وجعل يحدث جليسه هناك متظاهراً بانه لم يَرَ ما صار . وعطش يوماً وطلب ماء فقال العبيد احدهم للاخر : هلمّ ماء .

١) مات في ٤ اذار ١١٩٣ م .

واغمضوا ولم يأتوا بشيء . فطلب ثانية وثالثة وخامسة ولما احضروا الماء اخذ وشرب دون تذمر . ونهض يوماً من فراشه وقصد الحمام وطلب ماء بارداً ليشرب ولما احضروه اليه سقطت قطرات على جسمه فاهتز بسبب مرضه وأبى ان يشرب ومكث ساعة حتى ازداد عطشه فتضايق وطلب الماء . ولما اتاه به الخادم ارتخت يداه خوفاً وسقط الطشت وتدفق ذلك الماء البارد كله على جسم صلاح الدين (٣٩٧) فاقشعرّ اقشعراراً شديداً واكتفى بان يقول لذلك الخادم : قل لي هل تنوي ان تقتلني ؟ ولم يزد .

وسمع بكسر صاحب خلاط بموت صلاح الدين ففرح الفرح كله وحشد الجنود ليزحف الى ميافرقين . فوثب اليه صهره هزرديناري عبد شهرامان وقتله وملك مكانه . وحافظ على محمد ابنه الصغير وربّاه تربيته لابنه .

ومات في تلك السنة كذلك سيدنا امام الاسمعيليين في مصريات وخلفه الناصر الفارسي . وكان ملوك العرب والفرنج يهابونه . وقد اعد سكاكين كتب على كل منها اسم واحد من الملوك . وعندما كان يدفع سكيناً الى احد اصحابه كان لا بد له من انجاز مرامه ولو طوّح بذاته في البحر . وتضلع سيدنا من شتى العلوم وعلّم تناسخ الارواح طبقاً للرأي الافلاطوني ولقنه لاصحابه . ولهذا السبب كانوا يستخفون الموت زاعمين انهم يبقون احياء بعد ان يُقتلوا . وكان يختفي مراراً ويذاع عنه انه قد مات ثم يظهر ثانية . ولهذا اعتقد اصحابه بعد موته انه حي يرزق .

وفي السنة ٥٠٤ لليونان (١١٩٣ م) احتال لاون صاحب قيليقية على البرنس بوهيموند صاحب انطاكية وقبض عليه . ذلك ان بغراس كانت في حوزة لاون كما ذكرنا آنفاً ولما تركها العرب وانهزموا استرجعها ولكن حاكمها الارمني ان يحدث البرنس سرّاً ويبلغه انه يحاول الانتفاض على لاون مولاه ويسلمه القلعة ويعود الى انطاكية ويقيم بها . فارسل الحاكم الى البرنس ووعده بتسليم بغراس وصدّقه البرنس وخرج كمن يقصد القنص وخرج معه ابنه وامرأته ولما وصلوا الى العين المجاورة للبلد دلّى لهم الحاكم (٣٩٨) طعاماً وخمراً وقال لهم : لا يتيسر لكم ان تدخلوا القلعة نهاراً ولكن اذا جنّ الليل واقبلتم وجدتم الابواب مفتوحة ودخلتم خفية . ولا حاجة ان تحضروا معكم من

الفرسان احدًا لئلا يشعر الحرّاس ويفتضح السرّ . بل اتركوهم يكسنوا قريباً.

صدّق البرنس كلام الحاكم وغادر العين متظاهرًا بانه متوجّه الى انطاكية. ولما كان المساء رجع هو وامرأته وابنه وخدامه الصغار ووصلوا الى الباب وشاهدوه مفتوحاً ودخلوا مسرورين. وقال لهم الحاكم : ناموا الان واستريحوا حتى الضحى فنتشاور ونستدعي الفرسان شيئاً فشيئاً ونقبض على الحراس . ولمّا ناموا ارسل الحاكم الى لاون وكان كامناً هناك فاقبل مع جمهور من الارمن ودخل بغراس وقبض على البرنس واعتقله بالقيود واعتقل كذلك امرأته وابنه بالسلاسل ونكّل بالبرنس تنكيلًا شديدًا انتقاماً منه لانه سبق فنكل بروفين اخيه . وظلّ البرنس معتقلًا ريثما اقبل هنري ابن اخت ملك انكلترا واعتقه بالوعد والوعيد .

واشتدّ ساعد لاون على اثر موت السلطان قلج ارسلان واحتل اثنين وسبعين حصناً بعضها من الاتراك وبعضها من اليونان واحرز النصر في كل مواقعه .

اما عز الدين مسعود صاحب الموصل فلمّا بلغه خبر وفاة صلاح الدين همّ ان يستولي على سورية . فارسل الى عماد الدين اخيه صاحب سنجار ونصيبين والى سنجر شاه ابن اخيه صاحب الجزيرة والى مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربيل وجهزهم جميعاً ليسطوا معاً وينتزعوا البلاد من آل صلاح الدين . غير ان الملك الافضل بن صلاح الدين الاكبر وكان متولياً دمشق مكان ابيه ارسل الى عمه العادل وكان يومئذ في دمشق واستحضره قسرًا ليتولّى قيادة الجيوش ويبارز احزاب اتابك. وارسل كذلك (٣٩٩) الى اخيه الملك العزيز في مصر والى الملك الظاهر اخيه الثاني في حلب والى ناصر الدين بن تقي الدين ابن عمه في حماة والى الملك المجاهد بن ناصر الدين ابن عم ابيه في حمص وحشد الجنود منهم وسيّرها مع عمه العادل الى مرج الريحان بضواحي الزها . ولما سمع عز الدين صاحب الموصل حشد هو كذلك جيوشهُ واقبل الى نصيبين وهناك اصابه سُهال اضطره ان يعود الى بلده وما عتم ان مات . وكان رجلًا خيّرًا عفيفاً مُحسناً لم يشاهده احد يخاطب جليساً الا وهو مطرق . ولم يسأله احد شيئاً الّا لبّى سؤاله . وخلفه ابنه نور الدين ارسلان شاه وكان قيّمهُ مجاهد الدين قيماز .

وفي السنة ٥٩٠ للعرب (١١٩٣ م) زحف علاء الدين تكيش خوارزمشاه الى خراسان ولاقاه السلطان طغرل بجانب الري وقُتل طغرل وارسل رأسه الى بغداد وعُلق برأس قصبة ونُصب بباب بلاط الخليفة. وملك خوارزمشاه همذان وسائر البلدان واقام له نائباً اسمه قوتولغ اينايغ بن البهلوان سلطان همذان سابقاً . وهو الذي ارسل واحضر خوارزمشاه عندما افلت السلطان طغرل من حبسه وتغلّب عليه وانتزع بلاده . وبطغرل هذا انتهت الدولة السلجوقية في خراسان وبقيت دولتهم التي ببلاد الروم . وهو ابن ارسلان بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه بن ارسلان بن داود جغري بك بن ميخائيل بن سلجوق بن توقاق .

وفي تلك السنة اقبل الملك العزيز صاحب مصر الى دمشق لينتزعها (٤٠٠) من الملك الافضل اخيه الكبير . فسار الملك العادل عمهما وصالحهما بان تبقى اورشليم للعزيز وجبلة واللاذقية للملك الطاهر صاحب حلب وبعض قرى مصر للعادل . وبعد ما تهادنوا عاد كل منهم الى بلده .

وفي السنة ٥٩١ للعرب (١١٩٤ م.) وجّه الخليفة الناصر جيوشاً مع سيف الدين طغرل احد زعمائه الى اصفهان فسلّمه اياها الاهالي لشديد بغضهم للخورزميين الطغاة الذين تغلبوا عليهم . وفي السنة عينها تهيأ الملك العزيز صاحب مصر ليأتي الى دمشق وينتزعها من اخيه الملك الافضل . ولمّا سمع الافضل سار بذاته الى قلعة جعبر يريد عمه العادل واخاه الطاهر ليستنجد بهما فاقبلا معه الى دمشق واقبل كذلك الملك العزيز وارسلوا الى العادل والافضل يقولون : حلمّا الينا ونحن نسلمكما اياه . فشعر العزيز بالمكيدة واستعجل في العودة الى مصر فتتبعه العادل والافضل الى مصر ووصلا الى بلبيس وكان في امكانهما ان يحتلا مصر لكن العادل استسهل الافضل وعقد الصلح وعاد الافضل الى دمشق وتولّى اورشليم كذلك . واقام العادل في مصر وتولّى سياسة مملكة العزيز .

وفي السنة ٥٩٢ للعرب (١١٩٥ م) برز للملك العادل والملك العزيز من مصر واقبلا الى دمشق لينتزعاها من الملك الافضل . فاستعد هذا للحرب على اسوارها ووزّع الابواب والابراج على زعمائه . غير ان عز الدين الحمصي حارس الباب الشرقي انتقض على الافضل وادخل العادل الى دمشق وتوجه الى دار اسد الدين شيركوه عمه ثم دخل الملك العزيز كذلك وانتزعا المدينة من الملك

الافضل واستيلاه على قلعة صرخد فسار اليها . وعاد الملك العزيز الى مصر واستمرّ العادل في دمشق كانه نائب مناب الملك العزيز وكانت السياسة كلها بيده والاسم للملك العزيز . وقد ارسل الملك الظاهر غير مرة من حلب الى الملك الافضل يقول : لا تصدق العادل لانه لن يجديك نفعاً . وانا اعرفه اكثر منك . لاني صهره وابن اخيه . ولو عرفت انه يشفق علينا لعاملني افضل من معاملته لك . فاجابه الافضل : لقد ساء ظنك في من هو قائم مقام ابينا ولا يمكن ان يؤذينا .

وفي السنة ٥٩٣ للعرب (١١٩٦ م) تحرّش العادل بالفرنج مدّعياً ان الصلح قد الغي بوفاة ملك انكلترا وصلاح الدين . فسار الى يافا واحتلّها عنوة . وارسل الفرنج الذين في ساحل البحر الى اصحابهم يقولون: الحقونا سريعاً والا احتلّ العرب كل السواحل . فوجّه الفرنج جيوشاً ضخمة وعلى رأسهم رجل من الاكليرس يقال له شنسلير وزحفوا الى تبنين وحاصروها حصاراً شديداً وكادوا يحتلونها لو لم يفاجئهم الخبر بان هنري صاحب عكة سقط من مكان عالٍ ومات . فأجّوا الحرب اذ لم يبق لهم ملكٌ وارسلوا في استحضار صاحب قبرص وزفّوا اليه امرأة هنري . وما ان سمع العادل حتى ارسل في الصلح بشرط ان تكون بيروت للفرنج وتبنين للعرب فتركها الفرنج وانطلقوا .

وفي تلك السنة مات منكشاه بن خوارزمشاه في نيسابور وخلفه قطب الدين محمد مع ان المملكة كانت تحق لاخيه هندوخان طبقاً لوصية ابيها . ومات اذ ذاك كذلك سيف دين الاسلام طغتكين بن ايوب اخو صلاح الدين صاحب بلاد اليمن وخلفه ابنه اسمعيل ولم (٤٠٢) يكن مهذباً فوثب اليه الزعماء وقتلوه . وفي السنة ٥٩٤ للعرب (١١٩٧ م) توفي عماد الدين بن زنكي بن مودود بن زنكي بن اقسنقور صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقّة وخلفه ابنه قطب الدين محمد وكان وصيّه مجاهد الدين بن يغش عبد ابيه .

وفي تلك السنة زحف نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل الى نصيبين وانتزعها من قطب الدين محمد ابن عمه . ذلك لان قطب الدين توغل في بعض قرى ما بين النهرين بحدود الموصل فارسل اليه ليردّها فأبى فحشد الجنود وتوجّه الى نصيبين وقاتل قطب الدين وكسره وهزمه الى حرّان . فارسل الى العادل

يستنجده . اما نور الدين فبعد احتلاله نصيبين واقامته بها اياماً دبّ المرض في عساكره وقضى على ستّة من زعماء الموصل المشاهير بينهم مجاهد الدين قيماز حاجبه فاضطرّ ان يغادر المدينة ويعود الى الموصل فانقلب قطب الدين واسترجع نصيبين .

وفي تلك السنة سار خوارزمشاه الى بخارى وانتزعها من الخطا الصينيين وكان العرب البخاريون راتعين مع الصينيين الحكماء العادلين في بحابح السلام على رغم مخالفتهم لهم في الدين . وهذا ما حملهم على مقاتلة خوارزمشاه على الاسوار اشد ما يكون حتى انهم احضروا كلباً البسوه ثوب خوارزمشاه والقوه الى الاهالي يقولون : هذا ملككم. غير ان خوارزمشاه بعد ما احتلّ المدينة عفا عنهم ودفع لهم ذهباً واستحلفهم واحسن اليهم .

وفي السنة عينها زحف الملك العادل الى ماردين وحاربها حرباً عواناً وكان صاحبها حسام الدين فتىً صغيرًا وقيّمهُ نظام الدين بن يقش . على ان الاهالي خُدعوا وسلموا المدينة ودخلها جنود العادل وانتهبوها نهباً قبيحاً وافتعلوا فيها الاهوال (٤٠٣) وظلّوا يحاصرون القلعة .

وفي السنة ٥٩٥ للعرب (١١٩٨ م) مات الملك العزيز بن صلاح صاحب مصر . وكان قد خرج الى القنص يطارد ذئباً فسقط عن الحصان واصابته الحمّى فعاد الى القاهرة ومات فيها . وخلّف ابناً صغيرًا اسمه الملك المنصور فحصل خلاف بين الاقطاب وشاء بعضهم ان يكون الصغير خلفاً لابيه وبعضهم اختاروا العادل وغيرهم الافضل . وتغلّب احزاب الافضل وارسلوا فاستدعوه من خرخد وملّكوه . وعند ذلك لاذ خصومه بالفرار الى اورشليم واحتلّوها . اما الافضل فحشد جيوش مصر وغادرها يريد دمشقَ . فارسل الدماشقة الى الملك العادل وهو في ماردين فترك فيها ابنه الملك الكامل محمّداً وسارع الى دمشق . واقبل الافضل كذلك وحلّ فيها . غير ان جيوشه اختلفوا فتركوا وانقلبوا الى مصر ولم يستفيدوا شيئاً من قدومهم .

امّا الكامل بن العادل فظلّ يضايق الماردينيّين الذين في القلعة حتى قلّت ذخيرتهم وانتابهم المرض . وعوّل نظام الدين وصيّ الصبي حسام الدين ان يسلّم القلعة . غير ان نور الدين صاحب الموصل وولدَي عمّه صاحب سنجار

وصاحب الجزيرة ثاروا عندما سمعوا الخبر وقال احدهم للآخر : اذا احتل اصحاب العادل ماردين احتلوا معها كل بلادنا. فاتفقوا لذلك اتفاقاً تماً وزحفوا جميعاً الى دُنَيسر. وانحدر الكامل الى البزية واصطدم به المواصلة وكسروه. فانهزم مع اصحابه الى ماردين ولما وصلوا اليها شاهدوا ان المحاصرين في القلعة قد انحدروا الى المدينة ونهبوا الخيام واضطر الكامل ان يعود تلك الليلة الى حرّان ومنها الى دمشق عند ابيه العادل. قيل انه لو لم ينحدر اصحاب الكامل من الجبل الى البزية لتعذّر (٤٠٤) على المواصلة ان يزحزحوهم عن ماردين وكادوا يحتلّون القلعة كذلك غير ان الله جلّت احكامه يصنع ما يشاء .

وفي السنة ٥٩٦ للعرب (١١٩٩م) حشد الملك العادل جيوشه وسار الى مصر. فسمع الافضل وجيش كذلك جيوشه وخرج ليبارز عمّه فانكسر وانهزم ليلاً الى القاهرة . وسار العادل وحاصرها واراد ان يحاربها . عند ذلك اشار الاقطاب على الافضل ان يرسل ويطلب الصلح بسبب عجزه عن مناوأته. فامتثل الافضل المشورة وسأل ان يتولّى دمشق بدلاً من مصر لكن الملك العادل رفض. ثمّ طلب الرها وحرّان فلم يلبّه العادل . ثم طلب ميافرقين وحاني وجبل جور فوافق العادل . وأقسم احدهما للآخر وانطلق الافضل الى صرخد وبعث ذويه ليتسلّموا ميافرقين . اما نجم الدين ايوب بن العادل فقد امتنع ولم يسلّم . وارسل الافضل الى العادل يخبره فاحتجّ العادل بان ابنه متمرّد وعاصٍ . ولمّا عرف الافضل انّ ذلك اتفاق جرى بينه وبين ابنه اغضى وعدل عن ارسال وسيطٍ في الأمر .

وفي تلك السنة مات خوارزمشاه تكش بن الب ارسلان صاحب خوارزم . وبعض خراسان كالريّ وبعض بلاد الجبل وخلفه ابن قطب الدين محمّد ودُعي علاء الدين باسم ابيه . وفي السنة عينها مات القاضي الفاضل الفقيه المصريّ وحيد عصره في مصر .

وفي السنة ٥٩٧ للعرب (١٢٠٠م) الغى العادل الخطبة للفتى الملك المنصور ابن الملك العزيز فاستاء الاقطاب وكتبوا الى الملك الافضل في صرخد والى اخيه الملك الظاهر في حلب وقالوا لهما : هلمّا الى دمشق واذا برز اليكما الملك العادل فنحن نعتقله وندفعه اليكما. وقد سمع العادل شيئاً من هذا القبيل فارسل

الى ابنه الملك المعظّم شرف الدين (٤٠٥) عيسى وهو في دمشق ليستعجل الى صرخد ويحبس الافضل في قلعتها . ففرّ الافضل الى حلب عند اخيه الظاهر وزحفا معاً الى منبج وهي للعادل واحتلّاها واحتلّا كذلك قلعة نجم وانقلبا الى حماة فدفع لهما ناصر الدين بن تقيّ الدين ثلاثين الف دينار صوريّ فتركاها وتوجّها في طريق بعلبك الى دمشق . وقرّرا كلاهما انهما متى احتلّا دمشق تبقى للافضل ريثما يذهبان الى مصر ويحتلّانها وبعد هذا يردّ الافضل دمشق الى الظاهر وتبقى له مصر. بناءً عليه حاصرا دمشق وما كادا يحتلّانها حتّى حسد الظاهر اخاه الافضل وقال له : يجب ان تبقى لي دمشق وانا ابعث معك جنودي لتذهب الى مصر وتستولي عليها . فقال له الافضل : انك تعلم ان امّي واهلي هم ضيوف في حمص على باب غيرهم وقد استحضرتهم من صرخد اليها واعطيتها لزين الدين قراغا عبد ابي ليساعدني . وعليه ارغب ان تتركَ لي دمشق لتستتر فيها النساء. ويلزمك انت كذلك ان تدافع عنهنّ ريثما تحتلّ مصر. لكن الظاهر اعترض ولم يرضَ . ولمّا رأى الزعماء ما حصل بينهما من النزاع تركوهما وانطلق بعضهم الى العادل وبعضهم الى دمشق . واذ ذاك اتفق الاخوان ووجّها الى العادل عتبها في الصلح . واضاف العادل الى الملك الظاهر ما عدا حلب منبج وافامية وكفرطاب وبعض المعرّة. واضاف الى الملك الافضل سميساط وسروج وراس العين وجملين . ودخل الملك العادل دمشق وذهب كلّ منهما الى مركزه ..

ولمّا كان الظاهر والافضل يحاصران دمشق حشد نور الدين جيوشه واخذ معه ابن عمّه قطب (٤٠٦) الدين محمّدًا صاحب سنجار وصاحب ماردين وانطلقوا لينتزعوا ما بين النهرين من آل العادل . وما ان بلغوا راس العين حتى دبّ فيهم المرض في الصيف . وكان الملك الفائز بن العادل في حرّان فارسل الى نور الدين في الهدنة . وهذا لمّا بلغه اتفاق الافضل والظاهر والعادل ولا سيّما خبر المرض وافق هو كذلك على الهدنة . وتبادل الفريقان في الأيمان وعاد نور الدين الى الموصل وعاد كذلك كلّ واحد الى بلده .

وفي تلك السنة كان معزّ الدين قيصرشاه متولّيًا ملطية فزحف اخوه ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان وحاصرها وانتزعها منه في حزيران ١٥١١ اليونان

(١٢٠٠م) . وانهزم معز الدين قيصرشاه يريد الملك العادل حماهُ وهذا وجّه الى الرها واعطاه مؤونةً . وسار ركن الدين من ملطية الى ارضروم وفيها ابن الملك محمد بن صلتق وهو من البيوتات القديمة المالكة تلك المدينة وخرج الى لقائه معرباً عن مودّته وطاعته . لكن ركن الدين قبض عليه وسجنه واحتلّ المدينة . وانتزع قونية كذلك من غياث الدين كيكسر واخيه . وانهزم غياث الدين الى سوريّة وقصد الملك الظاهر صاحب حلب واخبره بما وقع مؤملاً نجدته . ولكنّه لم يستفد منه شيئاً فانتقل من عنده واختفى . وجعل يطوف من مكان الى مكان حتى انتهى الى قسطنطينية . وبالغ ملكها في اكرامه جدًّا وزفّ اليه ابنة احد بطارقته العظام . وظلّ هناك الى ان احتلّ الفرنج تلك العاصمة كما سنذكر ذلك . وعلى اثر الاحتلال سافر غياث الدين يريد حماهُ وهو صاحب احدى القلاع .. فرحّب به وقال له : (٤٠٧) حسبي وحسبك هذا البلد ريثما يفرج الله تعالى . واقام هناك الى حين وفاة اخيه .

وفي هذه السنة صار غلاء فظيع في مصر لان النيل لم يفض كعادته وأكل البشر جثث الحيوانات والبشر وتبع الغلاء الطاعون . وحدثت كذلك زلزلة قوّضت دورًا كثيرة واسوارًا شاهقة في دمشق وحمص وحماة وطرابلس وصور وعكة والسامرة وبلغت الزلزلة بلاد الروم ولكنها لم تكن قويّةً في بلاد المشرق .

وفي السنة ٥٩٨ للعرب (١٢٠١م) سار خوارزمشاه محمد بن تكش الى خراسان وانتزع مرو ونيسابور من غياث الدين ومن اخيه شهاب الدين لانهما كانتا له . ولمّا سار الى خوارزم بسبب موت ابيه اخذهما غياث الدين . وقد ارسل اليه يقول : ما كنتُ اتوقّع منك هذا بل ظننتُ انك تُنجدني وتقاتل الصينيّين ولكنّك أبيت ذلك وألحقت بي الضرر . غير ان غياث الدين لم يردّ اليه المدينتين المذكورتين صفوًا فزحف واخذهما عنوةً . ولم يستطع غياث الدين ان يعارضه بسبب داء النقرس الذي انتابه . وكان اخوه شهاب الدين يبارز يومئذٍ الهنود .

وفي السنة ٥٩٩ للعرب (١٢٠٢م) وجّه الملك العادل ابو بكر بن ايّوب صاحب مصر ودمشق جيوشاً كثيفة مع ابنه الملك الاشرف موسى الى ماردين وحاصرها ايّاماً كثيرة واحتلّ القرى والضواحي . فتوسّط بين الفريقَين صاحب

حلب الملك الطاهر غازي بن صلاح الدين وعقد الهدنة بان يؤدي صاحب ماردين الى العادل مائة وخمسين الف دينار فضة قيمة كل دينار ستة دراهم ويخطب له ويكتب اسمه على الدراهم والدنانير. وقبض الملك الطاهر عشرين الف دينار من ذلك المبلغ وانتزع منه قرية ترادي ببلد شبكتان وترك الاشرف وانطاق

وفي تلك الفضون كان التركمان يعيثون في البلاد (١٠٨) وينزون حتى تعذر على الناس السفر دون جنود وسلاح . وفي تلك السنة عينها عاد العادل فانتزع من الافضل ابن اخيه سروج وراس العين وجملين وانتزع منه الطاهر اخوه صاحب حلب قلعة نجم ولم يبق له الا سميساط فقط . ولما رأى ان عمه واخاه قد ظلماه بعث رسولا الى ركن الدين سليمان بن الملك قلج ارسلان صاحب ملطية وقونية وابدى له الخضوع وخطب وطبع الدراهم باسمه واصبح كواحد من الامراء في بلاد الروم . ثم كتب الى امه فقصدت الملك العادل وتوسلت اليه ان يرد لابنها ما انتزعه من يده من البلاد ولكنه رفض توسلها . هكذا عاقب الله سيحاته صلاح الدين بعد موته مثلما عاقب هو آل اتابك عندما ارسل اليه صاحب الموصل امه وابنة عمه ورفض توسلها. وفي هذه السنة رحل الملك العادل الملك المنصور ابن الملك العزيز من مصر وجعل اقامته في الرها مع امه واخوته خيفة ان يبايعه المصريون بالملكة . (لها صلة)